أمهات الكتب

مكتبة الأسرة
2000

مهرجان القراءة للجميع 2000

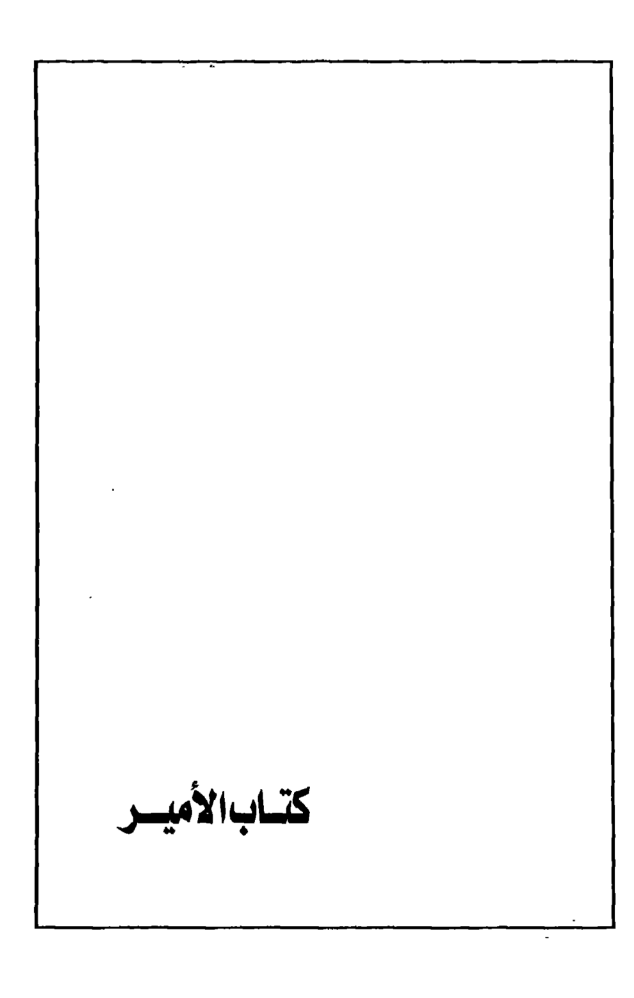
مكيافللي



الأمير



الهيئة المصرية
العامة للكتاب


كتاب الأمير

اسم العمل الفنى : الأمير ١٥١٣   التقنية : ألوان زيتية

سانتى دى تيتو

مصور من عصر النهضة (المعروف بالرينيسانس)(*) وهو فنان قليل الشهرة، اهتم بالتراكيب الكيماوية للألوان والزيوت والمواد الحافظة التى تساعد على صيانة الصورة وحمايتها ضد المؤثرات الجوية والتلف الناتج عن الرطوبة. ويهتم الفنان بالأشكال الظاهرية الملموسة، وتتنفس صوره بالحياة والتحدى للجمود والثبات.

محمود الهندى

كتاب الأمير

تأليف: نيقولا مكيافيللى

تقديم : كريستيان غاوس

ترجمة : محمد مختار الزقزوقى

إعداد وتحرير: د. سمير سرحان

د. محمد عنانى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(أمهات الكتب)

كتاب الأمير
تأليف: نيقولا مكيافيللى
تقديم : كريستيان غاوس
ترجمة: محمد مختار الزقزوقى

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
وزارة الشباب
التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

تصدير

يعتبــر كــتاب الأمير Il Principe الذى كتــبه نيــقولا مكيافيللى Niccoló Machiavelli عام ١٥١٣ من أمهــات الكتب بأى لغة وفى أى عصر لأنه وضع الأسس لما يسمى بعلم السـياسة فى عصرنا ، وهو العلم الذى تفرع وتشــعب فأصبح علــوماً سياسـية ، منهــا ما يختص بفلســفة السياسة (المرتبطة بفلسفة التاريخ التى تنسب أيضاً إلى مكيافيللى) ومنها ما يختص بالاقتصاد السياسى وفروعه ، ومنها ما يختص بفنون العسكرية السياسية (وكان مكيافيللى فيها باع طويل) ومنها مــا استحدث مع نشوء فنون الإدارة العامة فى الدولة الحديثــة ، مما ساهم فيه مكيافيللى فى آخر حياته ، ومنها علوم أخرى نشأت وتطورت من ذلك المنبع نفسه ، ولذلك فكتاب **الأمير** من الكتب التى تكثر قراءة التعليقات والشروح عليها وتندر قراءة المتن نفـــسه ، إما لعــدم توافره باللغــات العالميــة المختلفــة ، ومنها العربيــة ، أو لبعــد الشقة بيننا وبــينه (والعصر الذى كــتب فيــه) بحيث أصبح عــلى القارىء أن يعيــد لنفســه رسم ذلك العصــر ويعيــد صيــاغة مصطلحاته بتــرجمتها إلى مــقابلاتها الحديثة حتــى يتمكن من فهم النص فهماً صحيحاً .

والعقبة الأولى - أو السبب الأول لعدم قراءة الكتاب - أهون من العقبة الثانية ، خصوصاً لأن القارىء الحديث يقارب الكتاب وفى ذهنه تصورات سابقة استقاها من كلام المعلقين والمفسرين ، وتحديداً (وهو الأخطر) من إشارات الأدباء والسياسيين إليه ، وهى تصورات فى أغلبها مغرضة ، بدأها الفرنسيون فى القرن السادس عشر حين هاجموه من باب مهاجمة «كل ما هى إيطالى» (بتعبير ريدولفى Ridolfi مؤلف **حياة مكيافيللى** - الترجمة الإنجليزية - ١٩٦٩) وجاراهم فيها معظم الأوربيين ، بل وغيرهم من الشعوب ، حتى كاد **مكيافيللى** أن يصبح علماً على مبدأ «الغاية تبرر الوسيلة » أو «اللجوء إلى المكر والخديعة فى السياسة» أو «استخدام القسوة إذا كانت سبيل الرحمة» وما إلى ذلك من عبارات كثر ترديدها مقتطعة ومقتسرة ومبتسرة من السياق الحى لكتابات مكيافيللى ، ولم يعد يحفل بمعرفة حقيقة أفكار **مكيافيللى** ولا ما جاء فى كتاب **الأمير** إلا المتخصصون فى العلوم السياسية أو فى الفلسفة أو فى العلوم المتصلة بفلسفة التاريخ ، ولذلك رأت مكتبة الأسرة أن تقدم اليوم هذا الكتاب كاملاً إلى قراء العربية حتى يستطيع الدارس ، إذا جمع سلسلة أمهات الكتب (عام ٢٠٠٠) أن يطلع على المتن بنفسه ، مترجماً بقلم مترجم ضليع هو الاستاذ محمد مختار الزقزوقى ، دون أية تعديلات أو انتقاص أو إضافة ، ولو بالحواشى أو التعليقات ، باستثناء ما نورده فى هذا التصدير من لمحة عن حياة ذلك الكاتب والشاعر والمفكر

(والكاتب المسرحى) والقـائد السياسى الذى أحـدث صدمة لأبناء عـصره بنظريات لم يكونوا على استـعداد بعد لتقـبلها ، مستقـاة من واقع قراءته لتاريـخ بلاده (التاريخ الرومـانى العريق) وتاريخ عـصره وما شـاهده فى الدول الأوربية فى فـترة التحول العسـير من العصور الوسطـى إلى عصر النهضة .

ولد نيقولا مكيافيللى فى فلورنسا (فيرينزا Firenze بالإيطالية) يوم ٣ مايو ١٤٦٩ ، وكـانت أسرته تعتـبر منذ القـرن الثالث عشـر من الأسر البارزة ذات الثراء والنفوذ حتى أخنى عليها الدهر ، وكان بعض رجالاتها ممن شـغلوا أرفع المناصب فى تـلك المدينة الدولة city state إذ لم تـكن الدولة بمفهـومها الحـديث قد نشـأت ، فكانت فى إيطاليا مـدن تتبع من النظم ما تطبقه الدول الحديثة ، وكان والده متخصصاً فى القانون ، وكلمة dottore الإيطاليـة التى تترجم بتـعبـير دكـتور Doctor لا تـعنـى إلا التخـصص العام ، ولذلك فهو يشـار إليه أحيـانا باسم المحامى وإن لم يكن يستطيع ممارسـة تلك المهنة بسبب الديون التى كـان يدين بها لمجلس المدينة (أى السلطة التنفيذية أو الحكومة) فكان يقـدم المشورة القانونية سراً لمن يريدها مقابل أتعاب محدودة ، قـانعاً بدخله الضئيل من قطعة الأرض الزراعيـة الصغيرة التـى كان يمتلكها بالقـرب من المدينة ، ولذلك تشرب نيقـولا الصغير معـنى التقشف منذ الطفولة ، وكـتب ذات يوم يقول إنه «تعلم الامتناع عن أطـايب الحياة قبل أن يـتعلم الاستمـتاع بها » ، كـما

غرس فيه الـوالد حب الخلق الكريم والإحساس بالطاقة الروحية والنـفسية الجبـارة للدين ، ولكن الفقـر منعه من الالتحـاق بالمدارس الرسمـية ذات المصاريف البـاهظة ، ويقول أحـد المعلقين إن ذلك كان «نعـمة فى ثوب نقمـة » لأن أساليب التـعليم الرسمى آنذاك كانت ترتـكز على الحفظ ، وكان الشـائع هو الاتجاه الهومـانى (أو الإنـسانى - والتعـريب هو تعريب الدكتـور لويس عوض) ولم يكن يقـل فى صرامتـه وتحجـره عن الاتجاه الاسكولائى (أو المدرسى أى الخاص بتعاليم الكنيسة فى العصور الوسطى - والتعريب من وضع لويس عوض أيضاً) أى أنه اعـتمد على نفسه فى دراسة مـا يحلو له فى المنزل ، فلم يتقن اليـونانية بل صَبَّ جُلَّ اهتمـامه على اللاتينيـة ، وهى أصل لغتـه الإيطاليـة ، فنجا بذلك من «قـوالب» النخبة المثـقفة ، واتخذ لنفســه الأسلوب الميسر القريب من أفـهام قرائه ، دون أن يهبط إلى العامية ، أو يتخلى عن مستواه الفكرى الرفيع .

وفى عام ١٤٩٨ شـهدت حكومة فلورنسـا أحداثاً جسامـاً ، إذ أعدم سافونا رولا (Girolamo Savonarola) الراهب الزاهد الذى حاول أن يفرض نظـماً دينية وسـياسـية متطرفـة فى جمـهورية فلورنسـا الوليدة ، وانتصرت الفئـة المناهضة له ، وبانتصارها بزغ نجم مكيافيللى ، إذ عين رئيساً للمـجلس الرئاسى الثانى (أى الحكومة المحلية) ولم يتجاوز سنة ٢٩ سنة ، ولم يكن يعـرفه أحد حـينذاك ، ولكنه كان ذا فـكر حاذق وحب مشـبوب لـوطنه يصل إلى درجـة التفـانى فى الاخـلاص له ، فـكانت

عبارة «أرض الوطن» لديه تعنى «مهد الوجود والبقاء» وسرعان ما تحولت فى ذهنه بسبب استغراقه فى قراءة تاريخ بلاده إلى مرادف لكلمة «الدولة» ، وأصبح من أحلامه أن تعود إيطاليا دولة موحدة كما كانت إبان الامبراطورية الرومانية . وقد أفاده ما يسمى «بالذكاء العملى» أو القدرة على «تقدير الموقف» - كما يقول التعبير العسكرى الحديث - فى الحصول على منصب أمين «مجلس العشرة» أى مجلس الحكومة الأول ، وعن طريقه استطاع أن يتولى تصريف الشئون الخارجية والدفاع . وكان التوتر القائم بين الممالك الأوروبية آنذاك سبباً فى انعدام الثقة فى السفراء «المعينين» ، الذين كانوا كثيراً ما يتآمرون ضد دولهم بدوافع شخصية أو دينية ، فرأى مجلس العشرة إرسال مكيافيللى سفيراً فى كل مهمة تقتضى الإخلاص للوطن ، وكانت أول بعثة يقوم بها إلى البلاط الفرنسى فى عام ١٥٠٠ ، فقضى هناك خمسة أشهر أكدت له أهمية وجود أمة قوية موحدة ، يحكمها أمير فرد ، ينضوى الجميع تحت لوائه .

لقد رأى حلمه وقد تحقق فى فرنسا ، ولكنه كان يريد له أن يتحقق فى إيطاليا ، وسرعان ما صور له خياله تحقيق ذلك عند عودته إلى فلورنسا ، وشاهد الجمهورية على وشك الانهيار بسبب طموحات أمير يدعى قيصر بورجيا Cesare Borgia الذى كان يحاول إنشاء إمارة مستقلة لنفسه فى إيطاليا الوسطى مستعيناً بقوات من أبناء مقاطعته لا بالمرتزقة ، وحقق بذلك نصراً مؤزراً فاستولى على مساحات شاسعة فى

غضون شهور قلائل وبسط سلطانه عليها ، ويقول المؤرخون إن مكيافيللى رأى فى شدة بأس بورجيا ، وفى شراسته ومكره ، أى فى جمعه بين القوة والدهاء ، نموذجاً لما يكون عليه من يبتغى النصر حقاً ، وكان مكيافيللى يرى أن الحال فى فلورنسا (بل وفى ممالك إيطاليا كلها) قد وصلت إلى مرحلة المرض العضال ، وإذا كان المرض مستعصياً فلا شفاء منه إلا بعلاج مرير ، شديد الوطأة ، ثقيل على النفس ، وكان مكيافيللى قد أُرسل فى مهمة رسمية لمقابلة بورجيا وأجرى معه محادثات طويلة لم تكلل بالنجاح ، بل وشهد انتقامه الدامى من المتمردين فى مدينة سينيغاليا فى آخر يوم عام ١٥٠٢ ، وكتب عنه تقريراً خطيراً وشهيراً ، وكان مكيافيللى مفتوناً باتجاه بورجيا نحو النظريات والتنظير، على الرغم من إدانته للنفس التى تصدر عنها هذه النظريات والمجردات ، ويلخص أحد الباحثين ما يسمى بالتناقض فى موقف مكيافيللى من بورجيا فى مقولة موجزة هى إنه كان معجباً بانجاز الرجل لا بالرجل نفسه ، فكان يهلل للنصر وينعى النفسى التى أحرزت النصر ، وهكذا فإنه فرح عندما سقط بورجيا آخر الأمر وزج به فى السجن ، وكتب يقول « إنه المصير الذى يستحقه رجل كفر بالله » .

كان مكيافيللى فى روما إبان تلك الفترة ، من عام ١٥٠٣ ، حيث شهد انتخاب البابا الجديد يوليوس الثانى (عدو بورجيا اللدود) بعد وفاة البابا ألكسندر السادس والد بورجيا ، ووفاة خليفته بيوس الثالث بعده بقليل ، وعندما عاد إلى فلورنسا وجد أن پييرو سوديرينى

Piero Soderini قد انتخب رئيساً مدى الحياة لجمهورية فلورنسا وسرعان ما تمكن من الظفر برضاه بل وأصبح يده اليمنى ، مما مكنه من تحقيق بعض أفكاره العسكرية ، وأهمها الاستغناء عن القوات المرتزقة التى كانت المدن الأوروبية تستعين بها فى كل حروبها ، وإذا كان مثاله الأول هو روما القديمة ، فلقد وجد فيما سبقه إليه بورجيا من عدم الاستعانة بالمرتزقة دليلاً على صلاحية ذلك المذهب ، كما تأكد له ذلك مما كان الفرنسيون يفعلونه وهو ما شاهده بنفسه عندما زار فرنسا من جديد عام ١٥٠٤ ، وسرعان ما انطلق مكيافيللى يحاول إنشاء جيش خاص لفلورنسا من أبنائها ومن أبناء المناطق الخاضعة والموالية لها . واقتنع الرئيس بالفكرة عام ١٥٠٥ ولم يلبث الجيش الوطنى أن أنشىء عام ١٥٠٦ ، وأنشىء مجلس يسمى مجلس التسعة للاشراف عليه ، كما عين مكيافيللى أمينا لهذا المجلس الجديد . وهكذا ، وبعد سنوات معدودة ، عندما تمردت بعض القوات فى منطقة بيزا ، أرسلت فلورنسا قوات لدحرها واستعادة المنطقة من أيدى المتمردين ، وأصر مكيافيللى على قيادة الجيش الوطنى الجديد بنفسه وأحرز النصر يوم ٨ يونيو ١٥٠٩ .

واستمرت رحلات مكيافيللى فيما بين الدولى الأوربية ، فزار فرنسا من جديد فى يوليو عام ١٩١٠ لاقناع الملك لويس الثانى عشر ، حليف فلورنسا ، بأن يعقد معاهدة سلام مع البابا يوليوس الثانى ، أو على الأقل بالا يزج بفلورنسا فى حرب مآلها الخراب المؤكد ، ولكنه لم

يستطع ، وعاد فى أكتوبر من نفس العام وقد اقتنع بأن الحرب واقعة لاشك فيها بين البابا والملك الفرنسى ، وأن فلورنسا سوف تتورط فيها دون جدال ، وصح ما توقعه ، رغم جهوده المضنية ورغم عودته إلى فرنسا ليحاول من جديد اقناع الملك لويس الثانى عشر بعزل المجلس الحاكم فى بيزا الذى كان يدعو للانفصال ويبذر بذور الشقاق ، وكان الملك الفرنسى هو الذى يرعى هذا المجلس ، مما أدى إلى غضب البابا وثورته العارمة . وكانت الأحوال تسير من سيء إلى أسوأ ، وكان مكيافيللى يدهش فى حالات كثيرة لقصر نظر الحكام وعدم إدراكهم لنوايا الآخرين ، خصوصاً تصورهم أن الطبيعة البشرية تختلف باختلاف الظروف ، وكان كل ما يشاهده يؤكد له أن البشر من طينة واحدة ، وأن السياسى الذكى ينبغى ألا يفترض الخير فى الأخرين قبل وقوع ما يثبت هذا الافتراض ، ولذلك كان يعتاده حلم الأمير القوى الذى يدرك طباع البشر ، فبذل محاولة وصفت بأنها «يائسة» لتجنب الحرب ، إذ ذهب إلى بيزا وعزل المجلس بنفسه ، ولكن ذلك لم يمنع الجيوش البابوية - أى جيوش «العصبة المقدسة» - من الزحف على فلورنسا لتأديبها ودخلت الجمهورية ظافرة فعزلت سوديرينى وأعادت أسرة مديتشى عام ١٥١٢ إلى سدة الحكم.

أنهارت أحلام مكيافيللى بعد أن فقد منصبه ومنع من دخول القصر الرئاسى ، بل قبض عليه وأودع السجن بتهمة مشاركته فى مؤامرة

ضد مديتشى ولم يكن هناك دليل سوى وجود اسمه على قائمة من أسماء رجال سوديرينى مع أحد المتآمرين، ثم خرج من السجن وحددت إقامته ، وعانى الأمرين فى محاولته للتقرب من الحاكم الجديد ، إذ كان حلمه القديم ما فتىء يراوده ، فألف قصيدة يمتدحه فيها عندما جلس أحد أفراد مديتشى على كرسى البابوية باسم ليو العاشر (بعد وفاة يوليوس الثانى) كما حاول الاستعانة بأحد أصدقائه واسمه فرانشيسكو فيتورى ، فى تلك المحاولة ، ولكن جهوده جميعاً باءت بالفشل .

وعاد مكيافيللى إلى حياة الفقر ، ولم يجد سوى قطعة الأرض الصغيرة التى ورثها عن أبيه ، بالقرب من فلورنسا ، وهناك شغل نفسه بالكتابة فاستطاع فى عام ١٥١٣ (من الربيع إلى الخريف) أن يكتب أشهر كتابين له وهما **الأمير** والجزء الأكبر من كتاب **مقالات عن الكتب العشرة الأولى من تاريخ تيتوس ليفيوس** (Discorsi sopra la prima deca di tito livio) ومن الغريب أن يتصور بعض المترجمين أن deca (التى تعنى عشرة فحسب) تشير إلى عشر سنوات لإيحائها بكلمة decade الإنجليزية (و décade الفرنسية) ، ولكن كتاب المقالات يعلق على ما كتبه ذلك المؤلف الرومانى عن نشأة مدينة روما حتى فتحها على أيدى الغال (فى الكتب الخمسة الأولى) . وعن الحروب السامنية (فى الكتب الخمسة التالية) وقد فقدت معظم الكتب التالية (من ١١ - ٢٠ ومن ٤٦ - ١٤٢) ولم يترجم إلا أقل القليل منها إلى الإنجليزية .

وفيمايلى فقرة قصيرة ومركـزة كتبها روبرتو ريدولفى ، مؤلف كتاب حياة مكيافيللى ، والذى حقق ونشر كل ما يتعلق بالراهب سافوناروﻻ أيضاً، عن مضمون هذين الكتابين :

يقول ريدولفى «إن جميع مشاعر مكيافيللى كانت تنبع من حـبه للجـمهـورية وتصب فيـها ، وكـانت جمـيع نظرياته مـوجـهة لتـحسـين أحوالهـا ولكن فـساد الزمـان ، وضعف الدول [أى المدن الدول] الإيطاليـة ، وخطر الغزو الأجنبى ، كل ذلك جـعله يتحـرق شوقـاً إلى ظهور «أمـير جديد » ، أى القـائد القادر على تحقيق حلمـه العظيم بانقاذ إيطاليا [أى من الضعف والتمزق] وتخليـصها مما تتردى فيه [بعـد أمجـادها الغابرة] ولكن ذلك المخلّص لم يكـن قد اتخذ بعد صورة مـجسدة أو اكتسب اسما مـحدداً ، فحاول مكيـافيـللى أن يوجـده من العدم وأن يعـهـد إليه بالتـغلب على صـعاب تنوء بهـا طاقة البـشر ، ومن ثم فلن تتـاح له خيارات كثيرة فيما يتعلق بالوسائل اللازمة لتحقيق غاياته ، وهكذا حاول مكيـافيللى فى كتاب الأمير أن يبين للحاكم تلك الوسائل التى تتفق مـع تقلبات الـدهر وأحوال الطبيعة البشـرية ، بل إنه كان يعتـبر الإيمان الدينى (إذ كان يحـترم الأديان) من الوسـائل الكـفـيلة بتحـقـيق الغاية المنشـودة . والواقع أن مكيـافيـللى هـو مبتكر المصـطلح الشـائع فى علم

السياسة وهو منطق الدولة أو سبب وجود الدولة (regione di stato) وإن كان ذلك المصطلح لم يظهر إلى الوجود إلا بعد وفاته بعشرين سنة . وعلى الرغم من أن كتاب الأمير لا يتضمن إلا الأفكار التى عبر عنها فى كتاب المقالات فقد اكتسب شهرة أوسع بسبب اقتصاده فى التعبير ، وصوره الشعرية ، والطابع المباشر لبعض عباراته التى أصبحت تجرى مجرى الحكم والأمثال ، والتى فسرها بعض معاصريه ومن خلفوهم تفسيراً حرفياً ، وكان يقول أحياناً إنه لم يكن ليقدم بعض ما قدمه من أقوال مريرة ساخرة لو أن البشر كانوا عازفين عن الشر، ولولم يكن الإنسان أكثر شيء جدلا ، ولو لم يكن بعضهم فى أسفل سافلين . وهذا التشاؤم لا يدحضه تاريخ الفترة التى عاش فيها [بل يؤكده] ولكنه كان يطمح فى إقامة مجتمع من الصالحين الأخيار الأنقياء ، وكان يبحث عن ذلك المجتمع فى العصور التليدة ، بل وفى زمانه نفسه ، وكان يبدى إعجابه بالأمم التى لم تحرز تقدماً مادياً كبيراً بسبب انخفاض مستوى الفساد فيها ، وكان مكيافيللى يأمل أن يؤدى كتاب الأمير الذى أهداه إلى لورنزو مديتشى ، الذى حكم فلورنسا ابتداءً من عام ١٥١٣ إلى تعيينه فى منصب يعينه على كسب الرزق وإعالة أسرته ويرضى نزوعه إلى ممارسة العمل السياسى ، ولكن أمله راح أدراج الرياح » .

وإذا كنا نعتمد هنا على كتاب آلفه مؤلف إيطالى (فى ترجمته الإنجليزية) فإن ذلك لا يعنى اختلاف ما انتهى إليه عما خلص إليه جمهور الباحثين باللغات الأوربية الأخرى ، إذ يكاد يكون هناك إجماع على ضرورة ربط كتاب الأمير بالعصر الذى كتب فيه ، وعدم اقتطاع العبارات وتفسيرها تفسيراً لا يتفق مع السياق ، فعبارة مثل « الغاية تبرر الوسيلة» لابد أن توضع فى السياق الذى يفسر أن الغاية هى وحدة إيطاليا وبعث مجدها القديم ، وأن هذا المقصد السامى يهون فى سبيله كل شىء ، وأما المكر والخداع فهما من العوامل الثابتة فى كل عمل حربى ، وأما ما قيل عن «تشاؤمه» فمرده علاقته بضروب من البشر فى عصره أبعد ما يكونون عن الكمال ، وإذا كانت السياسة هى فن « الممكن » فلابد لمن يتعامل مع هؤلاء أن يحاربهم بأسلحتهم ، وفى ذلك الإطار وحده يمكن تفسير المثل الذى عملت به إنجلترا فيما بعد وهو «إن لم تستطع أن تهزمهم ، فانضم إلى صفوفهم » (If you can't beat them, join them) أى إن معنى «الانضمام» ليس مشاركتهم ما يفعلون بل استخدام الوسائل نفسها ، فلا يَفُلُّ الحديد إلا الحديد ، ولا يهزم المكر إلا المكر ، ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضر كوضع السيف فى موضع الندى ، كما يقول الشاعر العربى ، وقد كان ذلك هو ما دفع مكيافيللى فى الأعوام التالية إلى كتابة المسرحية الساخرة العجيبة «كوميديا كاليماكو ولوكريشيا» (١٥١٨) التى عاد فأطلق عليها عنوان «تفاح الجن» **La Mandragola** والتى تظهر عداءه الدفين للشر ونزعته الأخلاقية العميقة ، إذ يهاجم فيها بعنف كل صور الفساد التى شهدها فى

عصره ، وخصوصاً فساد الكهنوت ، فالضحك الذى نضحكه أليم مرير ، وقال عنها الناقد المعاصر له فرانشيسكو جويتشارديني (Guicciardini) «إنه يضحك من عيوب البشر لأنه لا يستطيع أن يعالجها» .

ولم يتملك اليأس مكيافيللى ، على الرغم من كل ما مر به ، مما يؤكد إيمانه بالقضية التى كرس حياته لها ، فما إن توفى دوق لورنزو وتولى الكا ردنيال جوليو دى مديتشى حكم فلورنسا حتى أهرع إليه مكيافيللى وأهداه الحوار البديع الذى أسماه فن الحرب (Dell'arte della guerra) فى عام ١٥٢٠ والذى جمع فيه أصول الخطط القتالية (التكتيك) التى عرفها فى عصره واستقاها من القدماء ، وهو أقرب إلى كتاب **الأمير** منه إلى كتاب **المقالات** بسبب الحاجه على موضوع وحدة إيطاليا، ويقول النقاد إنه وضع أصول التكتيك الحربى الذى نعرفه اليوم .

ووافق الكاردينال بعد ذلك على أن يتفرغ مكيافيللى لكتابة تاريخ الجمهورية، ومع ذلك ظل مكيافيللى يعمل فى مجاله المفضل وهو محاولة إصلاح نظام الحكم والادارة الحكومية ، فتنتقل بين البلدان ، وكتب **مقالات** جديدة موجهة للبابا ليو العاشر يبين له فيها وجوه الإصلاح المطلوبة ، وعندما توفى ذلك البابا فى ديسمبر ١٥٢١ طلب منه الكاردينال إعداد كتاب فى إصلاح الحكم له شخصياً ، فما كان منه إلا أن أعاد صياغة ماسبق أن ذكره للبابا الراحل ، فما إن توفى البابا أدريان السادس الذى كان قد خلف ليو العاشر وأصبح الكاردينال نفسه هو البابا الجديد

فى سبتمبر ١٥٢٣ ، واتخذ اسم كليمنت السابع ، حتى تفرغ مكيافيللى حقاً لكتابه ـ مؤلفه الكبير وهو تاريخ فلورنسا Istorie fio-rentine وانتهى فى أقل من عامين من كتابة خمسة أجزاء قدمها إلى البابا فى يونيو ١٥٢٥ .

وفى أبريل ١٥٢٦ انتخب مكيافيللى أمينا للجنة الخمسة المكلفة بالاشراف على صيانة الحصون والأسوار (Cinque Provveditori Alle Mura) ومن ثم شارك في آخر حملة عسكرية في مايو عام ١٥٢٧ ، وكان يأمل بعد أن تحررت فلورنسا من قبضة آل مديتشى أن يسترد مكانته السابقة فى مجلس حكومة المدينة ، ولكن طول تجاهله إبان حكم آل مديتشى جعل المسئولين ينسون حبه العميق لوطنه وللحرية ، فتجاهله الجميع فى التنظيم الجديد للحكومة وكانت خيبة أمله شديدة وبالغة الألم ، فعاد إلى التأمل ينشد السلوى من إيمانه الدينى ، ولكن الأجل لم يمهله فتوفى فى ٢١ يونيو ١٥٢٧ ، وكان قد أتم عامة الثامن والخمسين .

ويتضح من هذا العرض المقتضب لسيرة ميكافيللى مدى الظلم الذى حاق بسمعته ، خصوصا خارج إيطاليا ، بسبب العبارات المقتطفة من كتبه والى قصد منها تصويره فى صورة الرجل البارد الساخر المتشائم ، مع أنه كان دائما مشبوب العاطفة ، كريماً ، فياض الحماس ، مؤمنا بالدين إيماناً عميقاً ، وإذا كنا عرضنا لإنتاجه الأدبى بإيجاز ، فيجمل بنا قبل الانتقال إلى نص كتاب الأمير أن نقرأ بيتين من شعره ، يصف فيهما نفسه خير وصف إذ يقول :

: Io rido, e il rider mio non passa dentro

Io ardo, e l'arsion mia non par di fore !

إنىّ لأَضحكُ ثُمّ لا يَنْسابُ فى نَفْسى ابتسامْ

والنارُ تُحْرِقُنى فلا يبدو لهيبٌ أو ضرامْ

وأما عن مـذهبه الفكرى فيـمكننا تلخيـصه فيـما انتهى إليـه كاتب إيطالى آخـر هو ج. ساسـو (G. Sasso) فى الكتـاب القديم (١٩٥٨) الذى نهل منه كل من كتب عن مـيكافيللى فى النصف الأخيـر من القرن العشرين بشتى اللغات الأوربية ، وعنوان الكتاب :

Niccoló Machiavelli, storia del suo pensiero politico.

وهو يتناول فيه تاريخ الفكر السياسى له فيجمله فى أنه أحد مؤسسى فلسفة التاريخ ، باعتبار أنه كان أول من قدم نظريات الدورات التاريخية ، كما استند إلى المذهب القائل بأن الطبيعة البشرية لا تتغير أبداً فى وضع فلسفـة سياسـية أساسـها الإنسان نفسـه ، ومن هنا كـان ميله إلى وضع النظريات العالمية التى اتضح مدى جاذبيتها للقراء ، ومدى نفعها فيما بعد حتى لمن يختلفون معها .

والله ومن وراء القصد ،

مكتبة الأسرة

مقدمة كتاب الأمير

بقلم: كريستيان غاوس

- ١ -

كان القـارىء الأمريكى العادى قبل نحـو من نصف قرن أو الطالب فى أى من جامـعات أمريكا ، إذا تناول كتـاب «الأمير» لمكيافيللى فإنما يتناوله بدافع الفضول ليس إلا ، فقد بـات هذا الكتاب بالنسبة إليه ، من الكتب التى طوتها صفحة الزمن لا سيما وإن عنوان هذا الكتاب ، يستفزه على اتخاذ هذا الموقف . إذ أن عهـد الملوك والأمراء كان قد ولىّ ، أو فى ا ق إلى الزوال . وهو يعرف أيضاً أن موضوع هذا الكتاب ، قد دوّن ى فترة أسماها أعظم مؤرخى عصر النهضة من الانكليز ، وهو سيموندز بعهد الطغاة ، وكان المعروف والشائع عن مكيافيللى نفسه ، إن سمعته موضع الطعن والشبهات، لاسيما وقد غدت المكيافيللية نعتاً يجمع من المعانى مـا تحملـه كلمة الشيطان مفيستوفاليس فى رواية «فـاوست» المشهورة .

وقد كتب ماكولى، الكاتب الانكليزى المشهور، مقالاً ، ضمنه فكرة تقول أن الشيطان قد أسمى بـ «نيك العجوز» لأن نيقولا، هو الاسم لمكيافيللى .

وسأشرح فيما بعد العوامل ، التى أدت إلى أن يلحق الكسوف باسم مكيافيللى ، وكتابه الأمير ، فى بعض الأوساط ، لكن فى وسعنا أن نقول ، إن أى كتاب لم تمر عليه فترات من حسن الطالع وأخرى من نحسه ، فى أمريكا ، كما فى غيرها من البلاد كهذا الكتاب . ولا ريب فى أن الشروح الجديدة للتاريخ ، وظهور صور جديدة من الدول ، فى القرن العشرين وما تبع ذلك من احتكاك بينها ، كلها عوامل توضح ، الضرورة التى ثبتت لتحملنا جميعاً على قراءة هذا الكتاب . وليس هناك على الغالب من كتاب مختصر ، وفريد ، وضع فى ذلك الزمن الغابر يحمل القارىء فى القرن العشرين على أن يواجه مباشرة العديد من المشاكل الأساسية التى يمتاز بها هذا العصر كهذا الكتاب . وتتخلص هذه المشاكل ، فيما يجب أن تكون عليه علاقات المواطن مع الدولة ، وعلاقات الدول بعضها ببعض . وفى مصادر سلطة الدولة وحدودها ، إن وجدت ، وبالاضافة إلى ما فيه من اختصار ، فإن كتاب الأمير يشتمل على خصائص أسلوبية ، تجعل قراءته سهلة وممتعة . ويختلف مكيافيللى عن تليران ، السياسى الذى جاء بعده بقرون عدة ، فى أنه لا يستخدم الكلمات فى إخفاء حقيقة أفكاره . فهو واضح فى معانيه كل الوضوح ، وقد يكون فى النتائج التى يصل إليها أحياناً ، ما لا

يستساغ ، أو يقبل ، لكنها ، على درجة كبيرة من البيان والجلاء بحيث تشبه اللكمة التى يتلقها الإنسان على أذنه . ومن نافلة القول ، أن نذكر ، أن مكيافيللى يضع أمام القارئ المعاصر ، بعض مشاكل الرعوية والسياسة ، والنفوذ السياسى فى محور جديد وكثير البرور .

وسنرى فيما بعد ، إنه فى وسع مكيافيللى أن يقول «إن ما واجهه ، هو شرط لازب ، لا مجرد نظرية عابرة » . فكتابه ، ليس بالمقال الجامد ، بل الكتيب المختصر الذى يحتاج إليه كل من ينشد القوة السياسية أو يعمل على زيادتها . وهكذا فقد درسه واستخدمه ، لفيف من الملوك والوزراء الذين اختلفوا فى طبائعهم وأهدافهم ، من أمثال ريشيليو وكريستينا ملكة السويد وفريدريك ملك بروسيا ، وبسمارك ، وكليمنصو وجميع من ذكرت توفرت لديهم الخصائص اللازمة لصاحب السلطان . وقد اتسعت هذه الحلقة فى القرن العشرين ، اتساعاً كبيراً فشملت ، أولئك الذين ثاروا على أنظمة الحكم القديم . فقد اختاره موسولينى ، فى أيام تلمذته ، موضوعاً لاطروحته التى قدمها للدكتوراه . وكان هتلر ، يضع هذا الكتاب ، على مقربة من سريره فيقرأ فيه كل ليلة ، قبل أن ينام ، ولا يدهشنا قول ماكس ليرنو فى مقدمته لكتاب «أحاديث» ، أن لينين وستالين أيضاً ، قد تتلمذا على مكيافيللى .

ومن الحق أن يقال أن الكتاب القيم هو كالاكتشاف العلمى السليم ، يمكن أن يوضع للاستعمال البشرى ، فى صورة الاكراه والالزام ، دون

أن يبطل الالزام حقيقته الأساسية وحتى إذا أسفر البحث الذى لا تحيز فيه، عن الكشف بأن القابضين على ناصية السلطان فى الدول الديمقراطية، كدولتنا مثلاً ، فى هذا العصر ، من عدم الاستقرار ، كثيراً ما يستخدمون طرقاً ، كما نصمها فى الماضى بـ « المكيافيللية » فإن هذا الكشف ، لا يجدى فتيلاً وكل ما يهمنا هنا ، بصورة رئيسية ، هو البحث عن حالة خطيرة من التوتر فى ثقافتنا الراهنة ، وليس فى وسع انسان من أبناء هذا القرن ، أن ينكر وصول زعماء سياسيين حديثين إلى السلطة من أمثال لينين وستالين وموسولينى وهتلر الذى أعلنوا أحياناً بصراحة ، دون أن يخفوا شيئاً ، إيمانهم بأن الخلاص لا يأتى إلا عن طريق تزايد قوة الدولة النامية ، وليس فى وسع انسان من الناحية الأخرى أن يتجاهل رغبة عارمة ، لدى العديد من الأوساط ، لخلق ما أسماه ويندل ويلكى بالعالم الواحد . وليست الأمم المتحدة إلا محاولة تنطوى على العزم والتصميم لخلق «دولة فوق الدول» ، يتطلب نجاحها ، أن يكون فى حوزتها نوع من السلطان ، الذى يستخدم من أجل السلام والخير الإنسانى . ومازالت هذه المشكلة ، تخلق توتراً كبيراً فى عصرنا . ومنذ خمسين عاماً بدأنا نطلق على مكيافيللى اسم مؤسس علم السياسة الحديث : ويرى بعض المؤرخين البارزين من أمثال رانكى دومينيك فى المانيا واللورد أكتون فى انكلترا فى مكيافيللى ، أحد مؤسسى طريقة التحليل التاريخى الحديثة. ولذا فإن دراسة مكيافيللى من جديد ، وكذلك العطف المتزايد

المستمر الذى بدأ كتاب « الأمير» يلقاه مؤخراً ، يلقيان ضوءاً على أسس مشاكلنا السياسية الرئيسية إن لم يكن على طريقة حلها

- ٢ -

وتمتد جذور كتاب مكيافيللى ، عمقاً ، فى تاريخ الفترة التى عاش فيها ، إذ أنه لم يكن من الناحية الأولى كاتباً ، أو صاحب نظريات ، بل كان مشتركاً اشتراكاً فعلياً فى الحياة السياسية المضطربة وغير المستقرة ، التى مرت بمدينة فلورنسة .

ولد مكيافيللى فى فلورنسة عام ١٤٦٩ من أسرة توسكانية عريقة . وكان أحد أسلافه قد عارض معارضة فعّالة فى وصول المتمولين من أبناء أسرة مديشى إلى الحكم ، فى المدينة ، فقضى نحبة من جراء معارضته فى السجن . وقد أقام المديشيون حكماً استبدادياً ، من النوع اللين نسبياً، إذ حافظوا على الأنظمة الجمهورية القديمة ، فى الوقت الذى أمسكوا فيه بأيديهم زمام الحكم الحقيقى . ولم يكن المكيافيلليون موالين لأسرة مديشى ، فقد كان والد نيقولا (نيكولو) ، محامياً بارزاً ، وكان كوالده من غلاة الداعين إلى الجمهورية . ولم يتوفر لنا إلا القليل عن دراسة مكيافيللى الشاب ، فى صباه ، ولكن فى وسعنا ، أن نفترض أنه تثقف ثقافة مأثورة كغيره من أبناء عصره ، فعثر على مثله العليا فى تاريخ الرومان ، وقرأ الترجمات اللاتينية ، لمختلف الكتب الأغريقية القديمة .

وشب مكيافيللى فى عـهـد الأمـير المـديشى ، الذى أطلق عليـه الفلورنسيون اسم لورنـزو العظيم ، والذى اعتبروا عهـده بالعصر الذهبى للنهضة الإيطاليـة . وكان لورنزو أديباً مأثوريا وشاعراً ، فـشمل برعايته الفنانين والأدباء ، وأهل العلم . وإليه يرجع الفضل فى حفظ التوازن فى القوى بين الوحـدات الرئيسية الخمس لـلسلطات فى ايطاليا ، وهى مملكة نابولى ، والدولة البابوية ، فى رومـة ، والبندقية ، وفلورنسـة وميلان . ومن الواجب أن نذكر ، أنه فى فترة حكمه بين عامى ١٤٦٩ و ١٤٩٢ ، اغتيل أخـوه وأصيب هو نفسه بـجراح ، إثر مؤامرة ، قامـت بها إحدى الفئات المعارضة المنافسة ، وأن نضيف إلى ذلك أن هذه الوحدات الخمس نفسها لم تكن مستقرة . فـهى فى حالة اشتباك دائم ، مع المدن الصغيرة كفلورنسة مـثلا ، التى قادتها اشـتباكاتها المسـتمرة مع بيزا إلى مـا يشبه الحرب الصريحة المعلنة . وكان توازن القوى تبعاً لذلك ، على درجة من التبدل والغرابة ، حتى أن متتبعاً ذكيا كمكيافيللى لم يكن فى وسعه أن يتجـاهل عثور مدينتـه على حل لمشاكلها السـياسية . ومـات لورنزو عام ١٤٩٢ ، واضطر خلفـه بييـرو إلى الخروج منفـياً بعـد عامين ، عنـدما تعرضت المدينة لغزو جديد جاءها عـلى أيدى شارل الثامن ملك فرنسا . وظهر راهب دومينكانى اسمه سافـونارولا ، قام باصلاح الجمهورية ونجح فى إقامة حكومة ثيوقراطية دينيـة . ما عتمت أن انهارت ، فأعدم الراهب وأحرقت جـثته عـام ١٤٩٨ . وانتخب مكيافيللى بعد بضـعة أشـهر ، سكرتيراً للمستشارية الثانية لجمهورية فلورنسة ، التى تشرف على الشؤون

الخارجية والعسكرية . وأضحى ، من واضعى السياسة ومخططيها ، حتى أنه اختير ، فى اربع وعشرين بعثة دبلوماسية ، بينها اربع لملك فرنسا ، وعدة بعثات لروما وواحدة إلى الامبراطور مكسميليان . ووقع تطور جديد فى المنظر السياسى ، بعد أن قضى مكيافيللى ثلاثة عشر عاما فى الحكم ، فجاء الجيش الفرنسى من جديد إلى فلورنسة ، واضطر أهلها تحت ضغط الفزع والخوف ، إلى استدعاء آل مديشى ، وخرج مكيافيللى بدوره منفياً من مدينته .

كان لمكيافيللى خادماً أمينا مخلصا ، وكفؤاً للجمهورية ، وقضت عليه أوضاع المنفى أن يعيش بعيداً عن فلورنسة ، معتمداً فى إعالته على دخل متواضع يجيئه من ممتلكات صغيرة ، كانت له فى ضواحى المدينة . وقد وصف هذا الانقلاب فى طالعه ، فى رسالة بعث بها إلى صديقه فيتورى قال فيها :

«مازلت أعيش فى الريف منذ خروجى إلى المنفى . أستيقظ مبكرا عند الفجر وأمضى إلى الغابة الصغيرة ، لأرى ما قام به الحطابون من عمل » . وبعد أن يتبادل الاقاويل والشائعات مع الحطابين ، يمضى وحيداً إلى أحد التلال ، حيث يقرأ دانتى أو شيراك أو تبيولوس أو أوفيد . وبعد أن يتناول غداءه البسيط ، يمضى إلى الحانة حيث يتحدث إلى الطحان وصاحب الحانة ، والقصاب ، وبعض عمال البناء ، ويقضى معهم طيلة بعد الظهر فى لعب الورق ، والنرد «نتقاتل على الدريهمات .

وعندما يحل المساء أعود إلى البيت ، وأدخل إلى المكتبة ، بعد أن أنزع عني ملابسي الريفية التي غطتها الوحول ، ثم ارتدي ملابس البلاط والتشريعات وأبدو في صورة أنيقة ، وأدخل إلى المكتبة ، لأكون في صحبة هؤلاء الرجال الذين يملأون كتبها ، فيقابلونني بالترحاب وأتغذى ، على ذلك الغذاء ، الذي هو ، في الحقيقة ، ما أعيش عليه ، والذي جعل مني الإنسان ، الذي هو انا . وفي وسعي أن أتحدث إليهم وأن أوجه إليهم الأسئلة عن أسباب أعمالهم ، فيتلطفون علي بالإجابة. انني لم أعد أخشى الموت أو العوز . . . وقد تمكنت بالملاحظات التي دونتها من أن أضع كتاباً صغيراً أسميته (الأمير) !

واعتزم مكيافيللي ، اهداء كتابه هذا ، إلى أحد أفراد أسرة مديشي آملاً بذلك ، ان يدعوه المديشيون للعودة إلى الخدمة العامة ، والجاه والمنصب . وكتب بالفعل كتاباً ضمنه الإهداء ، إلى لورنزو الجديد ، ولكن من المشكوك فيه قطعاً أن يكون هذا الكتاب ، قد قدِّم بالفعل إلى لورنزو قبل وفاته عام ١٥١٩ . والشيء الأكيد الثابت ، أن كتاب الأمير قد وُزع على شكل مخطوط ونسخ مرات عدة ، ولكنه لم يطبع إلا بعد خمس سنوات من وفاة مكيافيللي عام ١٥٣٢ .

وأوفد مكيافيللي في أخريات أيامه ، بفضل أصدقائه ، وبعض المنظمات في فلورنسة ، في بعثات دبلوماسية ، لا شأن لها كبير ، كما تكرم الكردينال دي مديشي الذي أصبح فيما بعد البابا كليمنت

السابع ، فعـهد إليه بكتابة «تاريخ فلورنسـة» ، مخصصاً لـه مرتباً سنويا صغيراً .

وكـانت قد ظهـرت فى هـذه الآونة عوامل جـديدة عقـدت مشـاكل ايطاليـا ، وأضافت إلى مـا تعانيـه من مشـاحنات وخصـومات ، كـما ضاعفت من تعاسة مكيافيللى وشقائه ، فقد بدأ لوثر إصلاحه الدينى ، وأدت المنافسـات بين الأمبراطور شـارل الخامس الالمانى ، والملك فـرنسوا الأول الفرنسى ، للسيطرة على ايطاليـا ، إلى ما لحق برومة من خراب ، وإلى طرد عائلة مديشى من جديد من فلورنسة .

- ٣ -

ولا يضم كتاب الأمير ، جميع آراء مكيافيللى السياسية ، إذ اقتصر على بحث أكـثر مـشاكل ايطاليـا حدّة ، وإلى الحـديث عن تخلفهـا فى التنظيم السياسى . والقوة العسكرية ، عن الدول المجـاورة لها ، كأسبانيا وفرنسا ، وكان هذا الحديث موجهاً إلى الأمراء ، من أمثال مديشى الذين ظهر اسـمهم فى الإهداء . ولعل عـدم إقدامه على طبـعه فى حـياته على الرغم من نسخه وبروز اسمه عليه ، خـير برهان ، على ما سبق لنا قوله . وعلينا أن لا تعرونا الدهشة من تذكر الحقيقة الواقعة ، وهى أن الكتاب غدا مرجـعاً لكل طامح فى السيطرة السياسـية ، كما غدا كتـاباً مقروءاً ،

يدرسه المثاليون والمغامرون السياسيون على حد سواء ، فى القرن العشرين عندما اصبحت الدول القومية عرضـة لفترة من عدم الاستقرار . ولعل من سوء حظ سمعة مكيافيللى ، ان هذا الكتاب بالذات قد طغى على جميع مؤلفاته ، وأضحى المؤلف الوحيد الذى تستند إليه سمعته .

ولم يمض عشـرون عاماً على طبـعه ، حتى كان هذا الكتـاب ، قد طبع للمـرة العشرين ، وإذا كـان هناك من بطل للأمـير ، فهـو قيـصر بورجيا ، الذى تحـتل أعماله ومآثره ، الفصل السـابع من الكتاب ، بعد إضفاء عبارات الأطراء والثناء عليها . وكان مكيافيللى ، شأنه فى ذلك شأن «غاريبـالدى» الذى جاء بعد عدة قرون ، يـرى فى وجود دولة دينية فى قلب ايطاليا ، عقبة كأداء فى طريق وحدتها السياسية . وكان قيصر ، بإغضـاء من والده البابا الكسندر السـادس ، إن لم نقل بتأييده الفـعال ، يعمل على إقـامة دولة سياسـية قوية فى هذه المنطقـة ، وكان مكيافيللى يرى فى هذه الدولة ، إذا ما حالفـها القليل من حسن الطالع ، نواة يمكن لإيطاليا الجديدة الالتفاف حولها . وتطلع مكيافيللى بعد أن رأى أسرة مديشـى تزوِّد الكنيسـة بعدد من البابـوات والكرادلة ، إلى استـمرار هذه العملية بنجاح أكبر ، عن طريق تعاون النفوذ الذى تمتلكه الأسرة فى كل من فلورنسة ورومة .

وقـد أثبت الزمن من وجهـة النظر المتـعلقة بـسمـعتـه الأخيـرة أن مكيافيللى ارتكب أعظم أخطائه فى اختيار هذا البطل ، فقد اقترف قيصر

بورجيا جرائم كثيرة ، وهو فى طريق الوصول إلى السلطان ، كما اقترف جرائم أخرى بصورة عارضة . لكن مـا اتفق عليه المؤرخون المعاصرون ، فى تلك المنطقـة ، وهو ما يجب ذكره هنا ، أن قـيصـر قد اختـار مديراً للأشغـال العامة فى منطقـته ، مهندسـاً ذا مواهب فائقـة ، هو «ليوناردو دافنشى» . وثمة سبب آخر حمل مكيافيللى أثناء عمله فى الوظيفة كان مهتماً أيضاً بالشئون العسكرية ، وأنه كان مقتنعاً من أن استخدام فلورنسة وغيرها من المدن الإيطالية ، للمرتزقة فى جيوشها ، لن يمكنها مطلقاً من اقـتناء قوات عـسكرية كافـية ومـوثوقة . وأن قـيصـر ، بعد أن أجـرى إصلاحـات مهمة فى مـقاطعته رومـانا ، تناولت أفراد الشعب ، اخـتار جنـوده ، من الأهلين ، بعـد تدريبـهم ، تبين لنا سبب هذا الاعـجاب ، الذى حمل مكيافيللى ، على احتـذاء حذوه . وعلى الرغم من كل هذا ، فـإن النصـوص الواردة فى الفـصل السـابع المشـهـور تشـيـر إلى أن مكيافيللى . كان مـدركاً تمام الإدراك ، لما يستفزه اختياره لقيصر كبطل له ، من نقمة وسخط فى مـحيطه ، وهذا الإدراك ، هو الذى حمله على التكرار ، أكثر من مرة ان «استعراض الأعـمال التى قام بها الدوق (قيصر بورجيا) ، تجعلـه بعيدا عـن كل لوم، وتحملنى على العكس، كما فعلت ، على اعتباره مثـلاً يجب على الآخرين احتذاءه . وأعنى بهم أولئك الذين رفعهم الحظ ، ورفعتهم سواعد غيرهم ، إلى مناصب السلطان» .

ولكن الجو الأخلاقي في أوروبا وايطاليا ، ما عتم أن تبدل تبدلاً كلياً ، ولم يمض خمسون عاماً ، حتى أضحى أى ولد من أولاد البابوات، ولاسيما هذا النجل المرجو لايطاليا . وكانت ثمة اعتراضات أخرى ولا سيما تجسيد تلك الصفات التي تتمثل في كل من الأسد والثعلب والتي تتمثل في القوة والحيلة .

ولهذا السبب ، لم يترك كتاب الأمير أثراً بارزاً وثورياً في حياة ايطاليا السياسية . وأعلنت رومة ، لأسباب أخرى زعمتها ، وضعه على قائمة الكتب الممنوعة عام ١٥٥٩ . وقررت محاكم التفتيش ، إحراق جميع كتب مكيافيللي ، وأقر مجمع ترنت الكنسي هذا القرار وكتب أحد البروتستنت الفرنسيين في عام ١٥٧٦ رداً عنيفاً على كتاب الأمير ، سرعان ما انتشر وترجم إلى الانكليزية .

أما بالنسبة إلى القراء البريطانيين ، فقد كانت السرعة التي انتشرت فيها سمعة مكيافيللي ، واضحة في تكرار ورود – اسمه ، في جميع مؤلفات كتاب المسرحية في عصر الملكة اليصابات . وبالطبع فإن شخصية مكيافيللي ، التي تلقى الاستهلال في مسرحية مارلو «يهودي مالطة» هي شخصية زائفة مزورة . وقد أثبت الأديب الأمريكي هاردين كريغ ، ان الافتراض السالف ، بأن هؤلاء المسرحيين ، لم يكونوا قد اطلعوا اطلاعاً مباشرا ، على مؤلفات مكيافيللي ، ليس بالافتراض الصحيح .

وقد أصبح من الواضح ، انه بالاضافة إلى الترجـمات اللاتينية والفرنسية التى طبعت ، فقد وجدت هناك ترجمات انكليزية كانت توزع على شكل مخطوطات . ولا ريـب فى أن شكسبيـر ، فى روايته «زوجـات وندسور المرحات» عندمـا أطلق على لسان إحدى شـخصياته قـوله : «ماذا ، آأنا مخـادع . . آأنا مكيافيللى ؟ » لم يكن يضـفى مـديـحـاً على الكاتب الايطالى وفى وسعنا أن نوجـز الصيغـة الغالبة لجمـيع هذه الاشارات فى قـول مارتسـون فى روايته «بـيجـماليـون» : «وكان أحـد المكيافيلليين الملعونين ، يحمل المصباح للشيطان ، برهة من الزمن » .

ولا ريب فى أن هذه الأمـــثلة كـــافيـــة للإشـــارة ، إلى أن اسم مكيافيللى ظل . بعد أن مـرت على طباعـة كتـابه «الأمير» فى انـكلترا وفرنسا واسبانيا وإيطاليا ، خمس وسبعون سنة وهو يختلط فى الأحاديث العامـة بهذه الصفات والنعـوت التى أشرنا إليها . وقـد غدا مكيافيللى «عبـد الأدب السكِّير » الذى تنهال عليه المثـالب وتجرى عليه التـجارب . ولـم يحدث أى تبـدُّل فى موقف الرأى العام تجاه سـمعة مكيافيللى فقد ظلت كلمتا «مكيافيللى» و «مكيافيللية» اليوم تحـمل نفس المعانى التى كانت تحملها فى الماضى.

وعلى الرغم من أن فرنسـيس بيكون ، معاصر شكسبـير قد بيَّن أن مكيافيللى يتناول الأشخـاص ، كما هم لا كمـا يجب أن يكونوا ، فإن

أياً من فرسان الأدب والنقد فى القرن ونصف القرن التاليين ، لم يقم بأية محاولة لتحسين سمعة مكيافيللى .

- ٤ -

ولم يختلف تقدير العالم المثقف لمكيافيللى بصورة جوهرية عن تقدير الرأى العام فى حينه ، ولذا ، فإن التبدل القائم فى التاريخ الثقافى لأوروبا الغربية ، لاعادة تقييم كتاب مكيافيللى ، الذى كان فى الماضى معلوناً ، فغدا الآن مشهوراً ، من قبل المؤرخين وعلماء السياسة ، يعتبر أمراً بارزاً وكبير الأهمية .

ويقول « و.ش. داننغ » فى كتابه «تاريخ النظريات السياسية» أن مؤلف مكيافيللى ، كان مغايراً لنظام النظريات السياسية المألوف فى عصره ، كما كان اكتشاف معاصره كولمبس لأمريكا ، مخالفاً لنظام الجغرافية المقبولة فى ذلك العصر . وفى وسعنا أن نضيف ، أن هذا المؤلف ، ظل مغايراً ، للتيارات الجوهرية للفكر السياسى الحديث مدة ثلاثة قرون ، وقد بدأ مكيافيللى فى التسلل إلى هذه التيارات الحديثة فى أواخر القرن الثامن عشر ، وغدا قريباً من السيطرة عليها فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

وكثيراً ما اعتبر أرسطو ، إنساناً واقعياً ، وأثرت رسالته عن «السياسة» على اتجاهات الفكر فى العصور التى سبقت ظهور مكيافيللى .

ولعلّ خير ما يبيِّن الفرق بين التراث القديم وبين مكيافيللى ، هو أن نضع أمام القارىء ، الاستهلال الذى بدأ به أرسطو رسالته ، وأن نقارن بينه وبين استهلال كتاب الأمير . قال أرسطو فى استهلاله :

«لما كانت الدولة ، كل دولة ، نوعاً من المشاركة ، وكانت كل مشاركة ، تتم للوصول إلى نفع وخير - إذ المفروض أن الخير هو نهاية كل عمل - فان من الواضح أنه بالنظر لكون الخير هدف جميع المشاركات فإن الخير الأسمى ، فى أرفع رتبه ، هو هدف تلك المشاركة السامية ، التى تضم كل ما عداها ، أو بكلمة أصح ، الدولة أو المشاركة السياسية» .

وفى امكاننا تلخيص فصل نختاره كنموذج من أرسطو على الشكل التالى :

ثمة شروط ثلاثة يجب أن تتوفر فى كل من يملكون السلطة المطلقة فى الدولة ، وهى :

١- الإخلاص لنظام الدولة .

٢- الكفاءة لاداء مهام وظائفهم .

٣ - الفضيلة والعدالة ، فى المعنى الذى يتفق مع نظام الدولة .

وعندما يتحدث عن خير السبل للمحافظة على نظام الدولة ، يقول أن خير ما يصون هذا النظام هو تعليم المواطنين على روحية الدولة إذ «بدون هذا التعليم، تغدو أحسن القوانين وأكثرها حكمة ، غير مجدية» .

ولا يهتم مكيافيللى بتثقيف المواطنين إذ أنه يعتبرهم جامدين هامدين ، وليست الدولة فى رأيه أداة للوصول إلى حياة طيبة ، وإنما هى قوة فعّالة بل وحدة ديناميكية مفتونة . ويرى بعض طلاب مكيافيللى المعاصرين من أمثال ليوناردو أولشكى ، الذى وضع كتابه « مكيافيللى العالم» أنه كان أقرب إلى الطريقة العلمية من أرسطو ، أو من غيره من سابقيه ، وأن هذا هو العامل الأساسى ، فى انقلاب مكيافيللى على التقاليد المتوازنة . وفى هذا القول الكثير من الصدق والصحة ، إذ ، على حد تعبير اولشكى «تؤلف الدولة فى عقل مكيافيللى ، حقيقة نظرية مجردة، بل مبدأ ثابتاً ، يتمثل حقيقه العلمى فى الامارات والجمهوريات » ولعل من بعض الغلو فى القول ، أن نذكر أن دور الأمير يقوم فى توجيه هذه القوة ، وفقاً للمبادئ التى تتفق فى جوهرها مع المبادئ التى يوجه العالم بواسطتها سير صاروخه الموجه . وليس ثمة من هدف فطرى فى الدولة . إذ أن أى توجيه تسير عليه ، يجب أن يفرضه الحاكم عليها فرضاً .

ولم يكن هذا الاعتراف بالصفات العلمية فى مؤلفات مكيافيللى ، من الناحية الأولى هو الدافع إلى تجدد الاهتمام به وبمؤلفاته ، بل نجم هذا الاهتمام عن اعتبار مختلف كل الاختلاف ، لا يتضح للقارىء ، إلا عندما يصل إلى الفصل الأخير من كتاب الأمير . «فالتحريض لتحرير ايطاليا من البرابرة» ، مع الأمل فى أن «يختار الله شخصاً لانقاذها » هما

أبلغ ما ورد فى مؤلفات مكياڤيللى من فقرات وعبارات . ولا ريب فى أن ما فى هذا الفصل من شعرية متدفقة تبرز بروزاً واضحاً فى فكرتها ، إزاء العرض الرياضى الرتيب الذى يبدو فى بقية أنحاء الكتاب حتى أن النقاد الأدباء كانوا حتى عهد قريب يعتبرون هذا الفصل ملحقاً به لا جزءاً أصيلاً منه . لكن أية دلائل لا تقوم مؤيدة اضافة هذا الفصل فيما بعد . والتفسير الصحيح هو أن مكياڤيللى كان يجمع بين الروح العلمية وبين الوطنية العارمة ، ولعل هذه الروح الوطنية هى التى حملت مكياڤيللى من جديد ، إلى موضع الاعتبار والتقدير .

ولم تكن النظريات السياسية السابقة ، لتعنى عناية كبيرة بالحقوق الشعبية المجردة . وكانت فرنسا وانكلترا ، مثلاً فى عهد مكياڤيللى ، قد خطتا خطوات أكثر اتساعاً من خطوات ايطاليا نحو الوحدة القومية . لكن فكرة السيادة التى ظلت ردحاً طويلاً موضع البحث والنقاش فى النظريات السياسية ، كانت لا تزال مرتبطة ومشتبكة مع فكرة الملكية الوراثة .. وكانت الحقوق المعترف بها للأمير الذى حصل على لقبه بالوراثة ، من القوة بحيث تيسير لآخر أفراد الهوهنزولرن (الأسرة المالكة فى ألمانيا حتى نهاية الحرب العالمية الأولى) أن يزعم لنفسه الحقوق الالهية التى جعلت منه ملكاً ، وما زلنا حتى يومنا هذا نرى على النقد الانكليزى عبارة لاتينية تشير إلى هذا الحق على الرغم من أن الانكليز قد ارتضوا أحد أبناء أسرة هانوفر (جورج الأول) ملكاً لهم . وكانت سلطات

الأمراء بالوراثة إبان الحروب الدينية التي نشبت بعد عصر مكيافيللي، مقررة راسخة الدعائم ، حتى أن الأمير كان يعتبر صاحب الحق في تقرير المذهب الذي يتبعه رعاياه . ولم يكترث أمير مكيافيللي كثيراً بالمشاكل السياسية المركزية ، التي تحتم على هذه البلاد الاهتمام بها في محاولة حلها في القرنين السابع عشر والثامن عشر . وقد اعترفت القوانين الأساسية للملوك في كل من انكلترا وفرنسا بسلطان الملك وبحقه في الوراثة . وكانت المشكلة الفورية التي تواجهها هذه القوانين ، لا معالجة أوضاع الدول النامية على حقيقتها ، وإنما صياغة الديمقراطية الحديثة التي يجب أن يتمتع بها الرعايا ، في بلد تمارس فيه الملكية القائمة على أسس سليمة ، صلاحياتها بشكل مخالف للقوانين الأساسية. ولقد كانت هذه المشكلة . هي أكثر المشاكل الحافة التي عالجتها ثورات انكلترا وفرنسا وأمريكا . وكان من الواجب حلها بتطبيق مبادىء القانون الطبيعي ، ذات الجذور العميقة في أصول القانون الروماني وتطبيقاته ، على الرغم من تجاهل مكيافيللي لها ، وإهمالها أمرها ، ولو أعدنا قراءة اعلان الاستقلال الأمريكي بشكل سطحي ، وما فيه من اتهام لملك انكلترا فسيتبين لنا أننا حتى في عام ١٧٧٦ ، لم لنكن نصر إصراراً قاطعاً على الحقوق القومية . ولم تكن الذريعة التي أعتمدنا عليها في إقامة الدولة الجديدة ، هي تعلقنا بقوميتنا الأمريكية ، بل نشدانا التمسك بالحقوق الجوهرية الحياة الإنسانية ، كالحرة والسعي وراء الرخاء ، وهي حقوق اعتدى عليها ملك انكلترا الذي كنا من رعاياه . ومع ذلك ، كانت

الاعتبارات القومية التى قدر لها أن تبرز مكياڤيللى فى حياة القرن التاسع عشر السياسية تفكيره آخذه فى التطور .

- ٥ -

اعتبر المؤرخون والعلماء السياسيون ، منذ أيام عصر النهضة ، التى كانت مكياڤيللى أحد أبطالها وممثليها ، الحضارة الأوروبية عميقة الجذور ، تمتد إلى أقدم أيام الإنسان ، مارة بحلقة طويلة من التطور . عبر القرون الوسطى تشبه فترة العلاج الطويل فى المصطلح الطبى . قام أدباء القرن الثامن عشر بصورة خاصة بسلسلة من التحريات قدر لها أن تؤدى إلى نتائج أخرى وأن تميل إلى فصل ذلك الرابط المنبعث عن الإحساس بالقدم . ويطلق طلاب الأدب على هذه الفترة اسم الثورة الابتداعية (الرومانطيقية) وقد اهتمت هذه الثورة فى إحدى مراحلها ، بالقرون الوسطى على علاتها ، وأدى اهتمامها إلى عناية فائقة للغاية بشعر هذه الحقبة وأغانيها الشعبية . وكانت هذه الحركة أكثر بروزاً فى ألمانيا منها فى غيرها من البلاد ، على الرغم من أنها لم تكن قد خطت نحو الوحدة القومية . وكانت ألمانيا أقل البلاد الأوروبية تأثراً بالرومان ولذا لم يكن من المدهش أن نراها تبحث عن أصول ثقافتها ، فى شعرها الشعبى المنقول عن القرون الوسطى ، وفى عاداتها ومؤسساتها . وهذا التيار الفكرى الحديث هو الذى أثمر ما عرف فى عهد هلتر بالثورة على

الغرب، وهى التى تعنى الثورة على التقاليد الاغريقية – الرومانية . وهذا التجميد للشعب ذو علاقة وثيقة بما بدا من تأكيد أو حتى من غلو فى تأكيد الأصول القومية بصورة عامة . وبدأ الشعب يتخذ صورة الوحدة الخفية ، أو الشخص الماثل ، مع ما تربط هذا الشخص إلى نظرائه وقرنائه من وشائج القربى والدم . وهكذا أصبحت حقوق السيادة متمثلة فى هذا الشعب دون غيره ، كوحدة خفية ، وكشخص قانونى وبالطبع لم تكن لدى مكياڤيللى أية فكرة كهذه عن وجود شعب إيطالى ، إذ أن الإيطاليين كانوا بالنسبة إليه النسل المباشر للرومان ، ولذا فانهم أحق من غيرهم من الشعوب فى أن تكون لهم دولة قومية ، وهكذا فإن ارتفاع موجة المطالبة بتأميم المؤسسات فى أوروبا وخلق الدول القومية ، قد أدى إلى عودة أفكار القومية إلى الظهور على المسرح وإلى إقحام هذا الاتجاه الفكرى فى التيار العام الذى ساد القرن التاسع عشر .

- ٦ -

وامتازت فلسفة هيغل فى القرن التاسع عشر ، بالعمل على أن ترى فى الدولة الجهاز الذى تتحقق عن طريقه الإدارة الإلهية ، على التاريخ أو بواسطته . ومالت هذه الفلسفة إلى وضع القوى التى تؤثر على العالم الإنسانى فوق سيطرة البشر . وقد أخذت هاتان العقيدتان التى تقول أولاهما بالقومية كوحدة خفية تمتد جذورها فى الشعب ، وتقول ثانيتهما

برأى هيغل ، فى أن الدولة قوة تفرضهـا السماء ، وسلطة تتجاوز حدود اللانهائيـة في تطوير الحضارة تشتـدان وتقويان لتنبثق عنهـما فكرة الدولة القومية ، ومهد هذا التطوير الطريق أمام موقف أكثر تقبلاً للأفكار القومية التى انطوى عليها كـتاب الأمير . وارتفع الستار الذى كـان مفروضاً على مكيافيللى ، وأسفر تحـقيق الوحدة القومـية الايطالية التى كانت نبـيها الأول على اعتباره بطلاً من الأبطال . وجـعل الايطاليون من ذكرى مرور أربعمـائة عام على مـولده فى سنة ١٨٦٩ عيـداً قوميـاً ، وأقامت مـدينته فلورنسة على ضريحه نصباً تذكارياً كتبت عليه العبارة التالية : «لن يكون أى اطراء كافياً لوفاء مثل هذا الاسم العظيم حقه » .

وتميل العامة من قراء المناقشات الأخيرة عن كتاب «الأمير» التى دارت بين علماء السياسة ، إلى استخلاص نتائج خاطئة ، فهم يعرفون أن هلتر وموسولينى وستـالين قد اتبعوا سيراً من العمل ، كعـمليات التطهير التى تشبـه القواعد التى وضعـها مكيافيللى . وعندمـا يرون أن الدراسـات الأخيرة لكتاب الأمـير تميل إلى انصاف مكيافيللى وإطرائه بالنسبة إلى معتقداته السياسية الأساسية ، يستنتجون بأن علماء السياسة أخذوا يتجهون اتجـاهات فـاشـيـة وانى أرى من الـلازب ، هنا ، أن أود كلمـة شـرح ضرورية .

لا ريب فى أن الكثيرين من الزعـماء السياسيين من مخـتلف الفئات والاتجـاهات الذين تولوا مـنذ أيام مكيافيللى ، قـد وجدوا فى كـتابه

الأميـر ، الكثير مما يتـفق مع أهدافهم وأغراضـهم . وعلينا أن لا ندهش لرؤية المؤرخين الألمان في مطلع القرن التـاسع عشر يبدون اهتمامـاً خاصاً بمكيافيللي فلقد كـانت المشكلة الرئيسيـة لألمانيا ، شأنهـا في ذلك شأن ايطاليا ، الحاجـة إلى الوحدة القومية . وكان رانكي ، الذي يعـتبر أقدر المؤرخين الألمان ، ومؤسس الطريقة التاريخية الحديثة ، يشعر بالاضطراب إلى حد كبير . ولا ريب في أن ما كتبه عن مكيافيللي ينطوي على نوع من الاعتذار والتبرير ، عندما قـال أنه وقد أدرك الحالة اليائسة التي تعاني منها ايطاليا ، وقد وجد «الشجـاعة ليصف لها السم كعلاج » . . وينطبق هذا القول على الكثير من الوصفات المميتة التي وصفها مكيافيللي لعلاج مـا نسـميـه الآن «بالقـتل الاشـفاقـي» . ولكن رانكي يرى دائمـاً في مكيافيللي الرجل الذي يتأثر دائما في أقوال ناقـضيه وأعدائه ، لأنهم لا يفهمونه ، ولأنه على حد تعـبير رانكي «مؤلف من الطراز الأول لم يكن في يوم من الأيام بالرجل الشـرير» . ولا ريب في أن مينيكي يعتـبر من أقدر المؤرخين الألمان في القرن العشـرين . ويبدو أن هذا المؤرخ لم يتأثر بكتاب سابق ، كـما تأثـر بمكيافيللي ، فـوضع عنه دراسته الـتحليلية المشهورة لكتاب الأمـير ، التي تستخدم كمقدمة لأحـسن الطبعات الألمانية من الكتاب . وموضـوع الوقت هنا على على جانب كبيـر من الأهمية ، فنظرية رانكي في التاريخ ، قد تأثرت بأحداث القرن التاسع عشر وتياراته الفكرية . أما نظرية مينيكي المتشائمة ، فـقد وضعت في القرن العشرين وكتبت دراسته التحليلية عن كـتاب الأمير ، في الفترة المضطربة التي تلت

الحرب العالميــة الأولى . ومع ذلك أبدى مينيكى شجاعــة فائقة فى رفض ادعاءات هتلر ، بزعامــة الشعب الألمانى ، وأبى أن يذعن عندما أراد هتلر أن يفـرض السيطرة الفكرية على الجـامعـات الألمانية . وكـانت الكونت كارلـو سفورزا فى ايـطاليا المعـاصرة من أشـد خصوم مـوسولينــى جرأة وشجاعة . وسفورزا هذا هو الذى ألف مجلداً عن أفكار مكيافيللى الحيَّة ، وهو المجلد الذى يؤكد خلود الكثير من تفكير الكاتب الايطالى .

وكـان التيـار الفكرى فى الميل إلى مكيافيللى فى فرنسـا وانكلترا وأمـريكا ، أبطأ منه فى غـيـرها من البـلاد . وكـان بعض المؤرخين فى انكلترا ، أكثر اهتماماً بالمحافظة على الحريات الشخصية والمدنية من اللورد اكتـون ، ولا ريــب فى أن أقــواله عــن تأثير الفساد على السلطان أشــهر من أن تكـرر . ومع ذلك ، فقد كـتب أكتون هذا ، فى الحقبـة الأخيرة من القرن الماضى ، المقدمة التى تظهر عطفاً عاماً على مكيافيللى ككتاب بيرد عــن الأمير . وبدأ الاهتـمام الأولى فى أمـريكا بمكيافيللى ، بعد الحـرب العـالمية الأولى وكان خـيرة مـا ظهر من كـتب عنه فى الحقـبة الأخيرة . وأود هنا أن أقول ، تجنبـاً لكل سوء فهم ، أنه إذا كان طلاب النظريات السياسية من الأمريكان ، قـد أضحوا أكثر ميلاً لمكيافيللى فان هـذا لا ينبـثـق عن اتجاههم نحـو الفاشـيّة وإنما عن محـاولتهم ممـارسة الطريقـة العلميـة . ويبـدو لى أن ثمة خطأ فى هذا الموضـوع ، وان هذا

الخطأ قد بولغ فيه إلى حد كبير . وعلينا أن ندرس بعناية ، ولو لحظة من اللحظات ، كيف ظهر هذا الاتجاه . وإذا أردنا أن نضع اعتبار مكيافيللى تحت المجهر ، فمن الضرورى أن نكر أنفسنا أنه إذا كان ثمة خطأ قد ارتكب فإن هذا الخطأ إدراكى ، فكرى ، ولعل من نافلة القول أن نذكر أن الأخطاء الفكرية فى الديمقراطية الأمريكية بريئة فى مقصدها .



من حسن الطالع ، فى ناحية واحدة على الأقل ، أن دراسة السياسة تسمى عامة بعلم السياسة ، إذ أن السياسة لا يمكن أن تكون علماً ، بنفس المحتوى الذى ينطوى عليه علم الفيزياء مثلاً ، لما يقوم عليه من قياسات وتجارب وأرقام . ففى كل قرار سياسى ، يوجد دائما عنصر معين من المغامرة أو المجازفة . والأدباء المعاصرون الذين يميلون إلى قبول صاروخ مكيافيللى الموجه فى نظريته القائلة بالعلاقة بين الدولة والأمير إنما يقبلون بنوع من الجناس بين السياسة والفيزياء . والتجربة فى ميادين العلوم الطبيعية ، هى الوسيلة التى يوجه بها العالم سؤاله إلى الطبيعة . وهذا ما عمله فرانكلين ، عندما طيّر «طيارته الورقية» فى وجه عاصفة شديدة من الرعود ، فقد كان يسأل الطبيعة ، الرد على سؤاله عما إذا كان البرق ظاهرة كهربائية . وكانت الطبيعة لا فرانكلين هى التى تولت الرد

على هذا السؤال . ولا تدخل «المعادلات الشخصية» ضمن نطاق هذه الردود العلمية ، أما العالم السياسى ، فلا يملك تحت تصرفه مثل هذه الأساليب المتزمتة وخير ما يستطيع أن يعمله ، هو أن يدرس دوافع الأمراء فى الأوضاع المحدودة دون أن تكون لديه أفكار سابقة . وقد اعتقد مكيافيللى أن بين هذه الأفكار السابقة التى تحول دون الوصول إلى الحقيقة ، فكرة شديدة الخطورة ، وهى أن على الأمراء أن يتبعوا نفس القواعد الأخلاقية ، التى تتحكم فى سلوك الأفراد ولهذا فقد فرّق مكيافيللى ، تمام التفريق، بين دراسة السياسة ودراسة الشئون الأخلاقية، وأكد عدم وجود أى رابط بينهما . وهنا نجد أنفسنا ، وقد خضنا فى سلسلة من التناقضات النفسية (السيكولوجية) ، التى وصل إليها مكيافيللى عن طريق إحساسه الواقعى الشديد . فقد أوصى الأمير بأن يستخدم المصانعة والرياء، حيث يرى استخدامهما نافعاً ، للوصول إلى السلطان ، وبالطبع ، لن تكون هذه الطريقة مجدية ، على المدى الطويل ، إذ أن علاقات الأمير المهمة ، تكون مع الأمراء الآخرين . ولا يتطلب إدراك هذه النتيجة أى قسط من التعلق بالمثاليات ، وعلى الرغم من أن لاروشيفوكو الفرنسى ، لا يعتبر من المثاليين ، إلا أنه يقول فى إحدى حكمه المشهورة ان « المصانعة هى الجزية التى تدفعها الرذيلة للفضيلة» . وهو يعنى بهذا أن المصانعة تؤتى أكلها لأن غالبية الرجال ليسوا من المرائين والمنافقين وأنهم تبعاً لذلك ، لا يشكون كثيراً . وعندما يمارس جميع الأمراء أساليب الخداع ، يتوقف الخداع عن تحقيق أية نتائج لهم

جمـيعاً . وهذا ما حـدث بالفعل لبطله قيـصر بورجيـا ، إذ حصل على سلطان كبير عن طريق استخدام القـوة والحيلة . ولكنه سرعان ما فقد هذا السلطان عندمـا لجأ الأمراء الآخـرون ، إلى نفس أساليبـه واستخـدموها بنجـاح ضده . وعندمـا قام بعض المؤرخين والنظريين السـياسـيين ، من أمثـال مينيكى ، بخلق شـخصـية « الرجل السيـاسى» على غرار «أمـير» مكيافيللى ، فإن هذه الشخصية من ناحية تفسير التاريخ الإنسانى تصبح مضللـة فى تعبيـرها تماماً كـتضليل شـخصيـة «الرجل الاقتـصادى» التى ابتكرهـا علمـاء الاقتـصاد ، مـدفوعـين بنفس الرغبـة فى أن يكونوا من العلماء ، ولا ريب فى أن هذه الرغبة هى رد الفعل الطبـيعى للافتراضات التى لا مـبرر لهـا ، وللتـفكيـر الساذج اللين ، الـذى اقتـحم به طلاب السياسة ، والزعماء السياسيون والمواطنون عامة ، بوابة القرن العشرين .

- ٨ -

كان التفكير فى القرن التاسع عشر ، مغالياً فى التفاؤل ولعل السبب فى ذلك ، أننا جميـعاً ، بما فى ضمننا المؤرخون ، قد أخذنا نعـتقد بأن التقدم هو القـانون الحتمى للحضارة . وعلى الرغم من وجـود فترات من التوقف ، ومن الانتكاسات المؤقتة ، فقـد كان ثمة شىء فى طبيعة العالم وفى طبيعة الإنسـان ، يجعل الحضارة تسير فى طريـــق إنسـانـى مرغوب

فيه . واتجه التفكير فى القرن التاسع عشر إلى الناحية القومية بصورة بالغة ، واكتسبت جميع كتب التاريخ التى وضعت فى هذا القرن صورة قومية أيضاً . وعندما تناول المؤرخون وضع الدول القومية ، تتبعوا أصولها الخام من عهد قبائل البرابرة الشعبية حتى عظمتها ، وأصبح الشعب يعتبر أداة القدر للتقدم والازدهار . وعندما تطرقوا إلى بحث الشعوب الأخرى ، التى لم تتحقق لها وحدتها افترضوا أن سير التقدم ، قد تأخر بفعل حكام محليين أنانيين ، مؤكدين أنها ستصل حتماً وعما قريب إلى مرتبة القومية ، وانتشر الافتراض العام بعد تحقيق الوحدتين الايطالية والالمانية ، بأن البشرية ، أصبحت متأهبة الآن للخطو نحو الأمام ، خطوة واسعة . واستمر هذا الاتجاه الفكرى الذى ينطوى عامة على القومية وروح التفاؤل ، طيلة أيام الحرب العالمية الأولى . ولعل خير ما يوضح ايماننا بأن الشعب وحدة فطرية خيرة هو قبولنا دون تحفظ للمبدأ القائل ، بالحق القومى فى تقرير المصير . وأصبح من المفروض ، أن الشعب كالملك فى النظريات السياسية السابقة لا يمكن له أن يخطىء أبداً . لكن اضطهاد الأقليات فى الدول القومية ذات المصير الحر ، وظهور الفاشية الوطنية ، وفشل عصبة الأمم بعد عشرين سنة من قيامهم ، كلها عوامل أدت إلى صدمة قاسية أيقظتنا جميعاً ، بما فينا من مؤرخين وعلماء سياسة . وتلقت الفكرة الجديدة القائلة بأن الشعب ليس «بالوحدة

الخيّرة» ، تأكيداً جديداً من تطور نشأ بعد الحرب العالمية الأولى . فقد قام كارل ماركس بتفسير التاريخ من جديد حوالى عام ١٨٥٠ ، واحتفظ ببعض نظريات هيغل القائل بأن قوى التاريخ لا تخضع لتوجيه الإنسان وإنما تعمل تلقائياً وآلياً . وأسقط ماركس الله من حسابه ، على أساس أنه افتراض لا جدوى منه ، وفسّر التاريخ تفسيراً يقوم على عداء القومية .

وعلى الرغم من أن نظريات ماركس قد أصبحت فى حينها موضع الكثير من الجدل والنقاش ، إلا أنها اكتسبت أهمية سياسية من الطراز الأول بعد اعتناق الروس السوفيات لها ، واضفائهم عليها نواة ومركزاً قوميين .

ووضعت هذه التطورات نهاية للتفكير الذى ساد القرن التاسع عشر . واختفى من الوجود الاصلاح الذى طالما تردد فى القرن التاسع عشر بصورة مقبولة ، وهو اصطلاح «عائلة الشعوب» . وإذا كانت هناك عائلة من هذا النوع ، فإنها ولا شك عائلة شقية تعسة . ولو تحمل أى منا مشقة الاطلاع على خرائط أوروبا وآسيا عام ١٩١٠ وقارنها بخرائط عام ١٩٣٠ ثم عام ١٩٥٠ لأذهله ما يجد فيها من استمرار فى انتقال الحدود ، وظهور دول جديدة واختفاء أخرى . وتوصل إلى النتيجة المحتومة بأن عالمنا المزدحم والمتشابك يضم دولاً قومية فى القرن العشرين ، لا تختلف من ناحية ما فيها من عدم استقرار وفوضى ، عن الأوضاع التى كانت سائدة فى دول المدن فى ايطاليا فى أيام مكيافيللى .

- ٩ -

ليس من العسير أن نفهم ، لماذا تجدد الاهتمام بآراء مكيافيللى فى هذه الفوضى الراهنة من الدول القومية فى العالم التى تشبه الدول المدنية التى كانت سائدة فى أيام مكيافيللى .

ويرى الكثيرون من نقاد مكيافيللى فى القرن العشرين أنه كان الرجل الحديث الأول . ولا ريب فى أنه يبدو كذلك ، فى ناحيتين على الأقل . فمن الناحية السلبية ، لم يؤمن مكيافيللى قط ، بالتقدم ، وقد توقف الكثيرون من الرجال المعاصرين عن الايمان بذلك أيضاً . أما من الناحية الايجابية ، فقد آمن مكيافيللى بالقومية ، كما آمن بالطريقة العلمية ، إلى الحد الذى حمله على التخلص من الآراء والأفكار الغيبية . ولا ريب فى أن مشاكلنا ، من الناحية الظاهرية على الأقل مشابهة للمشاكل التى واجهها . وجل ما يهدف إليه رجل القرن العشرين ، الوصول إلى السلام و «السلامة» بالنسبة لدولته ولنفسه . ولكن مكيافيللى لم يهتم بالسلام ، ولم يؤمن بضرورته . لكن الحروب فى أيامه كانت برداً وسلاماً إذا ما قورنت بالحروب فى أيامنا . ولو لم تنشب الحروب آنذاك ، لما قدر للآثار الفنية الخالدة والنصب المعمارية الرائعة فى رومة وفلورنسة والبندقية أن تعيش . ولكنه أراد «السلامة» لمدينته وآمن بأن هذه السلامة يمكن أن تتحقق ، بواسطة أمير ، يستطيع أن يفرض على دويلات المدن ، الانصهار فى دولة قومية .

من الواضح فى كتاب مكيافيللى «محادثات عن الجباية» أن الدولة القومية الايطالية تعنى بالنسبة إليه أن تكون وريثة عظمة الجمهورية الرومانية ، ومن الواضح أيضا في جميع مؤلفاته ، أنه كان يرى الايطاليين متفوقين على غيرهم من الشعوب والأجناس البشرية . وهو يرى أن ما يحققه الفرنسيون والاسبان من سيطرة على بعض أنحاء ايطاليا ومايسلبونه منها ناجم عن تفوقهم فى التنظيم السياسى الذى يمكنهم من ذلك. وإذا تمكنت من إيجاد هذه الدولة ، فإن وضعها الجغرافى الممتاز على البحر الأبيض المتوسط « بحرنا » ، سيمكنها من إعادة فرض سيطرتها على العالم المتمدن . ولما كانت رومة قد أفلحت فى تحقيق ذلك فى الماضى فإن فى وسع أبناء الرومان ، إذا نظموا أمورهم تنظيما فعالاً مؤثراً ، وإذا توفر لهم بعض حسن الطالع وتطبعوا بفضائل الرومان الأقدمين ، أن يعيدوا هذه الأمجاد التليدة . ولعل إحساس مكيافيللى العميق ، بالهوان من جراء سقوط الأقوياء ، يفسر هذه البلاغة العاطفية الرائعة البادية فى الفصل الأخير من كتابه ، الذى أثار حيرة ناقديه ودهشتهم . وقد أجمع مؤرخو القرن التاسع عشر على تأييد ايطاليا في كفاحها البطولى لتحقيق الوحدة ، فقد آمنوا أنها بوصولها إلى الوحدة ، ستتمكن من استعادة مركزها التاريخى المرموق بين أسرة الشعوب .

وقد أهمل الناقدون الاشارة بصورة عامة ، وما زالوا يهملونها ، إلى عدم وجود ما يدل على أن مكيافيللى كان من المحتمل أن يبدل فى

نصيحته إلى الأمير عندما تصبح ايطاليا شعباً واحداً . والقيمة الحقيقية ، أو العلمية المفترضة لكتاب الأمير ، تجعل ما فيه من نصائح يوجهها إلى الحاكم ، لتسير أعماله ، أمراً يمكن تطبيقه بصورة عامة . وكان موسوليني في هذه الناحية حوارياً أكثر ولاء وصدقاً لمكيافيللي من مازيني الذي رغم عمله المستمر لوحدة إيطاليا كان يعارض بعض آرائه الأخرى .

فالدولة القومية بالنسبة لمكيافيللي ، أو الدولة بصورة عامة ، هي قوة يجب أن تعتمد في جوهرها على العمل الدينامي وعلى العدوان ، وقد كتب أحد خيرة الباحثين السياسيين في امريكا بعيد الحرب العالمية الأولى ، أن القومية قد برهنت على أنها «مرحلة مؤقتة وانتقالية في طريق التوسع » . وإذا لم نحمل هذا الرأي على محمل الاعتبار والتقدير التأمين ، فليس في وسعنا أن نفهم مكيافيللي ولا أياً من المشاكل الدولية في عصرنا

وقد رأينا مكيافيللي يستخلص من نظريته العلمية القائلة بأن الدولة قوة ، قواعد السلوك التي يتحتم علي الأمير اتباعها . فقوة كهذه سواء أكانت قذيفة أو قنبلة لا تنطوي على مبادىء أخلاقية ، لاسيما وقد رأينا أن هذه المبادىء لا تربط الأمير ، وإنما ترك له حق الاختيار في تقبلها أو رفضها . ونحن ندرك أن الأوضاع التي تجد الدولة نفسها فيها هي التي ترسم صورة القواعد الأخلاقية ، للمواطن ، في ظل النظام الديمقراطي . فعندما تشتبك بلاده في حرب يتحلل من قواعد احترام ما للحياة من

قداسة وإطاعة الوصية المقدسة التى تأمره بأن لا يقتل . وعندما يرى بلاده فى خطر يتوجب عليه أن يدافع عنها . ولما كانت مسؤولية الحاكم عن سلامة بلاده تفوق مسؤولية المواطن العادى ، فإن مثله الأخلاقية ، تكون عرضة للتبدل أثناء الحروب أكثر من غيره ولا ريب فى أن ما أفزع قراء كتاب الأمير القدامى ، وما زال يفزع بعضهم حتى الآن ، هو أن ما أسماه رانكى بالسم والذى وصفه مكيافيللى فى كتابه ، يمكن أن يستخدمه الأمير لا ضد أعدائه الخارجيين فحسب ، بل ضد مواطنيه ، الذين يعارضون فى حكمه لسبب من الأسباب . وثمة فقرات فى الكتاب ، يبدو فيها أن تحديد مكيافيللى لتطبيق القوانين وسريان مفعولها مشتق من نظريته فى القوة ، وإليك المثال :

«عندما تفتقر الدولة إلى السلاح الكافى ، تنعدم القوانين الجيدة ، وعندما تكون جميع الدول مسلحة تمام التسلح تكون جميع قوانينها جيدة ، وسأتخلى فى حديثى عن القوانين ، واقتصر فيه على الأسلحة »

وعندما ظهرت فى القرن التاسع عشر ، الدول القومية الجديدة كألمانيا وايطاليا، لم تعتبر القومية قوة من الناحية الأولية ، وإنما اعتبرت حارساً خيراً ، للحقوق السيادية التى يتمتع بها شعبا ، ولكن هذه الحقوق السيادية التى تمتعت بها الشعوب جعلت العالم الأوسع ، الذى تعيش فيه عالماً لا سيطرة للقانون فيه . وكان رجل القرن التاسع عشر ، المؤمن بالتقدم والقومية مبالاً إلى اعتبار هذا العالم من الدول القومية ، نوعاً من الدولة المثالية (يوتوبيا) التى ستتحقق عند انتهاء التاريخ ، كما يعتبر

الماركسى مجتمعه الذى تنعدم فيه الطبقات عالماً مثالياً . وإذا لم يكن هناك من قانون يسود القومية السيادية ، فقد ظل هناك ما نسميه بقانون الطبيعة الأول ، وهو حق البقاء والدفاع عن النفس ، وكثيراً ما ارتكبت الجرائم باسم هذا الحق . فلم يكن الشعب يسمح لجيرانه بالإيغال فى القوة والتسلح . والكثير من مظاهر التوسعية والاستعمارية والحروب الوقائية كانت تجرى تحت اسم المصالح القومية أو الدفاع عن المصير . وكثيراً ما بررت هذه الأعمال ، على أنها ضرورية لأسباب تتعلق بالدولة ، وبالنظر إلى الافتقار إلى أى مبدأ آخر ، فقد أضحى هذا القانون هو الوحيد . وبالنظر إلى هذه المظاهر ، كان من حق **مكيافيللى** ، أن يستخلص بأن نواة الدولة ، هى القوة . ولا ريب فى أن **مكيافيللى** ، فى اعتباره للدولة على أنها قوة توسعية ديناميكية كان أقرب إلى الواقعية وإلى الواقع السياسى من كثيرين من مفكرى القرنين التاسع عشر والعشرين ، فكان بهذا الاعتبار ، أكثر عصرية .

- ١٠ -

ولكن **مكيافيللى** ظل من الناحية الأخرى ، بعيداً عن العصرية ومتمسكاً بالمأثورية الايطالية التى بدت فى عصر النهضة . فهو لا يحس مطلقاً بما نسميه الآن بالتطور التاريخى . وقد عثر على مثله العليا فى رومة ، وكانت الجمهورية الرومانية بالنسبة إليه ، ترمز إلى ذروة ما حققه الإنسان ، وفى «مساجلاته» تبدو الجمهورية الرومانية ، وكأنها خير

مـا ابتكره الإنسان من طرازات الحكم وصـوره . وكان شـديد الاعجـاب بمؤسسـات هذه الجـمهـورية ، حـتى أن أحد خـيـرة الطلاب الفرنسـيين المعاصرين لمكيافيللى ويدعى «رينوديـه» كـتب يقـول أنه لـو طلب إلى مكيافيللى وضع دستـور لدولة حديثة ، فـسيشـتمل هذا الدسـتور على القناصل ومجـلس الشيوخ والحكام (الشـريبون) ، ولكان قـد أعاد فى هذا الدستـور الأفكار الرومانية بنصـها وروحهـا ، فجاء أقرب إلى الدسـتور الفرنسى الذى سنة اليعـاقبة بعد الثورة الفـرنسية ، لاسيمـا وقد كانوا من المعجبين بالرومان ، منه إلى الدستـور الذى سنة المستعمرون الأمريكان ، وجـاهدوا فى سبـيل وضعـه مـحتـملين الآلام والمتـاعب ، لينطبق على احتيـاجات الشعب الذى وجد نفـسه بعد سبع سنوات مـن الثورة ، وقد اتيح له أن يخلق طرازاً من الحكم مثالياً ، يتـفق مع أوضاع شعب حر ، ولم يكن لمكيافـيللى أى أثر على طراز الحكومـة الأمريكية أو مـا يسمى بالديمقراطيـة الجفرسونيـة ، وإذا ما أعاد الإنسان قـراءة كتاب جفـرسون ونقب فى جميع مـا ورد فيه من عبـارات ، فانه لا يرى أى أثر أو حتى اشارة عـابرة لمكيافيللى . وليس فى كـتـاب الأمـيـر أى تحـديد لسلطة الدولة، بينما كانت مشكلة هذا التحديد ، هى كل ما أهتم به جفرسون .

وأصول العقـيدة القائلة بحقوق الإنسان والتـى لا يقبل بالتنازل عنها معروفة إلى حـد كبير ، حتى يصبح أى حـديث عنها من نافلة القول ، ولذا تكفى الإشارة إليهـا . ومن الغريب أن هذه النظرية برزت لأول مرة

فى عهد انحطاط دول المدن الاغريقية . وكان المفكرون الأغريق قد توصلوا إلى النتيجة القائلة بأن عالم الطبيعة كون هيولى يضم عالماً من القوانين التى يكتشفها العقل البشرى . وقد أسفرت فتوحات الاسكندر الأكبر فى الشرق ، عن قيام المزيد من الاتصالات بين مواطنى المدن اليونانية وبين مواطنى الدول الأخرى . وأحس الرواقيون إحساساً عميقاً بأن الناس يعيشون فى عالم واحد ، وانهم جميعاً مواطنون فى مدينة عظيمة أطلقوا عليها اسم المدينة العالمية . ولهذا العالم الإنسانى قوانينه أيضاً وعلينا أن نقرب بها ، إذ أردنا أن يحقق الإنسان جميع امكانياته البشرية .

وفى وسعنا أن نتجاهل جميع هذه الأقوال على اعتبار أنها من الفرضيات ولكن من الغريب أن الرومان الذين يمتازون عن الاغريق بالروح العملية الواقعية قد واجهوا نفس المشكلة ، وأخذت الأقوام ، التى تمت إلى أجناس غير رومانية تتدفق على رومة ، لمزاولة الأعمال التجارية وللتنعم بما تضفيه عليهم من سلامة وطمأنينة . ولما كان أبناء هذه الأقوام ، لا يعتبرون من المواطنين ، لم تكن لهم أية حقوق قانونية أو أية رعوية . وأخذ القضاة الرومان يبحثون عن قاسم مشترك ، لقوانين جميع الشعوب ، واعتقدوا أنهم عثروا علية فيما أطلقوا عليه اسم قانون الشعوب ، وهو ما اعتبروه القانون الأساسى . وكان هذا القانون الأساس الذى قامت عليه جميع قوانين الطبيعة وقوانين طبيعة الله ، التى استوحاها جفرسون فى اعلان الاستقلال الأمريكى ، والتى قدر لها أن تؤلف أساس

معتقـداتنا العصرية عن حقوق الإنسان وعن العـدالة . وقد أدخلت جميع هذه القواعد فى التـشريع الرومانى الذى قدر له أن يؤثر كل الـتأثير على الحضارة الأوروبيـة وبالتالى الحضارة الأمريكـية . ويدين المؤرخون الألمان المعاصرون الذين يمثلهم مينيكى ، الشديد الاعجاب بمكيافيللى ، جميع أولئك الذيـن يشـغلون أنفسهم فـيما يسـميه بالطريقـة الطبيعـية المثلـى للتـفكيـر . ومن الغـريب أن نجـد ان مكيافيللى ، الذى كـان شـديد الاعجـاب بروما ، لم يكن يهتم كـثيراً بالتشـريع الرومانى الذى يعتـبر أعظم اسهام لروما فى الحضارة البشرية .

- ١١ -

ولم يكـن تمكن الإنســان رغم جـميـع العـوامل من البقــاء ، على الرغم من ضعفه الجسمانى إذا ما قورن بالأسود مثلاً ناجماً عن الخديعة أو الحـيلة التى لجأ إلـيهـا بعض الأفراد . وعلـى الرغم من وجود الرجـال الشريرين فى كل زمان ومكان ، فـإن الإنسان مدين ببقائه عبـر ما يقرب من نصف مليون عام ، وبحضارته التى أقامها فى غضون الستة آلاف سنة الأخيـرة إلى شىء سليقى فطرى ، فى طبـيعتـه . وهذا هو السبب الذى يحتم علينا اعـتبار الحضارة أمراً طبـيعياً بالنسـبة إلى الإنسان . وهذا هو السبب الذى دفع بأرسطو إلى اعتبار الإنسان حيواناً سياسياً أو اجتماعيا . والدولة ليست خـارج نطاق عالمنا الانسانى . فـالشكل المعين لهذه الدولة

التى يعيش البشر فى ظلها ليس من صنع الله ولا من صنع الشيطان أو فرضهما ، وهى إلى حد ما من الأشياء التى خلقها الإنسان ، ولذا من الواجب أن تكون خاضعة كغيرها من الأمور التى خلقها لاعادة نظره ودراسته . وهذا السبب أيضا هو الذى حمل الرواقيين على الاعتقاد اعتقاداً صحيحاً كما ذكرت آنفاً ، بأن جميع الناس يعيشون فى مدينة عظمى ، بل فى عالم إنسانى يختلف فى إمكانياته واتساعه عن العالم الذى تعيش فيه الأسود والثعالب . وفى إمكان الرجال الذين تنعدم فيهم صفات البشر ، ويفتقرون إلى الرحمة والانسانية ، أن يعيشوا كالحيوانات المفترسة وان يبحثوا عن فرائسهم . ولكن مثل هذا الزحف على القسوة والسلطات قد يكون ممكناً لأن الكثيرين يشعرون بالحاجة الفطرية إلى التعاون والاخوة البشرية . ولما كان الإنسان ذكياً بطبعه ، وخلاقاً ، فمن المحتوم أن تقوم خلافات ومصادمات ، وان تظهر مشاحنات دامية حول الصور الممكنة والمختلفة ، التى يجب أن توجد فيها الارتباطات القبلية أو المدنية أو القومية أو العالمية ، ومع ذلك بظل هناك شعور بالمصلحة المشتركة ، وبالرابطة التى تصل بين الناس . وهذا هو السبب الذى يحفز رجال عصرنا الحاضر على الاهتمام بالمدن القديمة وبالطريقة التى كان يعيش فيها الناس وسيجد الزعيم نفسه دائماً منهزماً أمام تصلب وعناد أفراد جيله ، ولكن هذا الزعيم إذا كان ذكياً مدركاً ، فإنه يدرك أن طبيعته الاجتماعية ، وحاجته تحتمان عليه ، أن يضع قانوناً للسلوك يكون بالطبع ، قانونا أخلاقياً ، يستهدف أولاً وقبل كل شىء

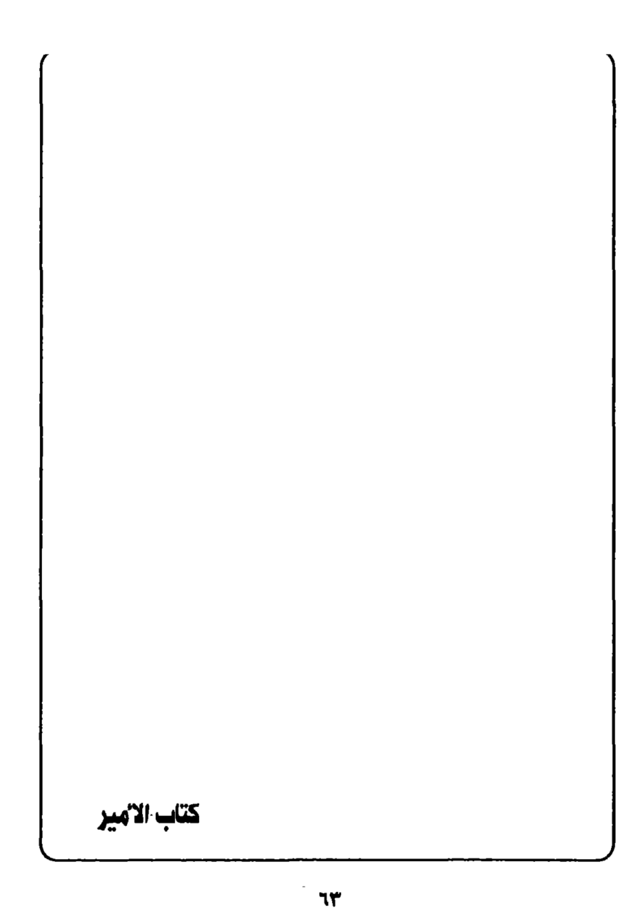
خير للمجموع ، ولا ريب فى أن العامة من الناس يعرفون هذا تمام المعرفة ، ولذا فهم لا يضعون قيصر بورجيا وإيفان الفظيع ، فى نفس المكانة مع القديس بولس الملك الفرنسى ، أو جورج واشنطن . وعلى الرغم من أن مكيافيللى لا يذكر هذا بصراحة فى كتابه الأمير ، إلا أن الإحساس بطبيعة الرجل وحاجته لم يكن بالشىء الغريب عليه . ففى مساجلاته حول موضوع الجباية يأمر قارئه بأن :

«يلاحظ ما أضفاه الناس من اطراء ومديح على الأباطرة المستحقين ، الذين بعد أن غدت رومة أمبراطورية ، تمسكوا بأهداب الشرائع والقوانين كحكام طيبين خيرين ، بعكس أولئك الذين اختاروا السبيل المضاد . وسيلاحظ هذا القارىء ان شيش ونيرفا وتراجان وهادريان وانطونيوس وماركوس وأوريليوس ، لم يكونوا بحاجة إلى الحرس البريثورى وإلى فرق الجنود للدفاع عنهم ، لأن لهم من سلوكهم الحسن ، وحب الشعب لهم وتأييد مجلس الشيوخ خير ضمان لحمايتهم » .

وقد أدت الاكتشافات العلمية الحديثة إلى قوة الاحساس بأننا نعيش فى مدينة عظيمة يسودها الانسجام ، وتسيطر عليها قوانين الطبيعة ، ولم يعد هناك إلا النزر اليسير من الناس ليشك فى هذه الحقيقة . ولا يستثنى هذا الإحساس بالطبع ، وقوع بعض الكوارث ، والخراب . ولا ريب فى أن الأخطاء التى تسبب الزلازل هى نتيجة عمل قوانين

الطبيعة ، تماماً كعودة الربيع ، أو إيناع الزهور أو قتل الرياح الشديدة للكثير من البراعم . وهكذا ففى العالم الإنسانى وفى الشئون البشرية، ستكون هناك ثورات يائسة ومميتة تؤدى إلى خسائر عديدة فى الأرواح.

لقد قضى مكيافيللى ثلاث عشرة عاماً يجاهد لتسحين الأحوال فى بلاده وقد تعلم فى هذه المدة الكثير من الحقائق وكان الجزاء الذى لقيه، هو النفى . ومن نافلة القول أن ننكر أن كتاب «الأمير» مؤلف ينطوى، على المرارة التى نجمت عن فشله فى حياته . وليس فى استطاعة القارىء الحديث أن يسمح لهذه الحقيقة بأن تحول بينه وبين رؤية ما يحتوى عليه الكتاب من حقائق ما زالت تنطبق على واقعنا فى هذه الأيام .


كتاب الأمير

الباب الأول

فى أنواع الحكم المختلفة ووسائل إقامتها

إن جميع الدول والسيادات التى خضع لها البشر ، ومازال ، إما جمهورية أو ملكية . والملكيات ، إما وراثية فيها حكام من أسرة بعينها منذ سنين طويلة ، أو ملكية قامت حديثا . وهذه إما جديدة تماما كمملكة ميلانو فى عهد فرنتشسكو سفورتسا Francesco Sforza ، أو كأجزاء جديدة تضاف إلى ممتلكات الأمير الموروثة ويلحقها بها . كمملكة ميلانو فى عهد ملك أسبانيا . والممتلكات التى اكتسبت بهذه الطريقة إما أنها قد ألفت حكم أمير آخر فيما سبق ، أو كانت ولايات حرة ، ويلحقها الأمير بممتلكاته ، إما بقوة أسلحته هو ، أو بقوة أسلحة غيره ، أو يسقطها فى يده حسن الطالع أو قدرة خاصة .

الباب الثانى

فى الإمارات الوراثية

لما كنت قد عالجت الجمهوريات معالجة تامة فى موضع آخر ، فلن أتحدث عنها هنا ، ولن أعالج الآن سوى الأنواع المتباينة التى سبق أن تحدثت فيها - كيف يمكن أن تحكم وأن تصان . وعلى ذلك أقول : إن الصعوبة فى المحافظة على الدول الوراثية التى ألفت حكم أسرة حاكمة أقل بكثير منها فى حكم الملكيات الجديدة ، لأنه يكفى ألا نتجاوز أوضاع السلف ، وأن نتهيأ للطوارئ المقبلة . ومثل هذا الأمير ، ولو فرض أن كانت قدرته عادية ، سوف يستطيع على الدوام أن يصون ملكه بهذه الطريقة ، إلا إذا جردته منه قوة خارقة مفرطة . وحتى لو حدث هذا الأمر ، ففى مقدوره أن يستعيده فيما بعد حين يقع أقل طارئ سيئ للمحتل الجديد .

ولدينا مثال لذلك فى إيطاليا هو دوق فرارا الذى استطاع أن يصد غارات البنادقة عام ١٤٨٤ ، والبابا يوليوس عام ١٥١٠ ، لا لسبب سوى قدم أسرته فى هذه الدوقية . لأن الأمير الشرعى أقل حاجة وسببا من غيره لإلحاق الأذى برعيته ، ومن هنا يجب أن يكون محبوبا أكثر منه .

ومنطقيـا لابـد وأن يميلوا إليه بطبـيعة الحـال إذا لـم تجعله رذائل خـارقة بغيضا ، وسوف تضيع ذكريات ما استحدث وعللها بتقادم سنى حكمه ، حيث أن التغيير مرة يترك دائما الطريق ممهدا لإدخال تغيير آخر .

الباب الثالث

فى الإمارات المختلطة

ولكن الصعوبات توجـد حقيقة فى الملكيـة الجديدة ، فأولاً ، إذا لم تكن جديدة تماماً ، ولكنها ، كمـا كانت ، جزء من دولة مختلطة ، فإن اضطراباتها تنبـجس أولاً من صعوبة طبيـعية توجد فى جمـيع الممتلكات الجديدة ؛ لأن البشر يغيرون برغبتهم الحكام ، أملا فى تحسين أحوالهم . وهذا الاعتقاد يجعلهم يشهرون السلاح ضد حكامهم الذين خدعوا فيهم ، لأن التجربة تثبت فيما بعد أن حالتهم قد انتقلت من السىء إلى الأسوأ. وهذا نتيجة لعلة أخرى طبيعية جدا ، وهى الضرر الذى لابد منه يقع من جنود الأمـير الذى تولـى عليهم ، ومن عـدد لا حـصر له من الأضـرار الأخرى التى نتجت عن احتلاله .

وعلى ذلك تجد أن جـميع هؤلاء الذين أسـأت إليهم باحـتلال تلك الولاية أعداء لك ، ولا تستطيع أن تحافظ على صداقة أولئك الذين قدموا

إليك يد المساعـدة فى الحصول عليـها ، لأنك لن تقدر على أن تحـقق ما يتوقعـونه منك ، أو أن تتخذ معهم إجـراءات شديدة ، لأنك مدين لهم بالمعروف . ولذلك ، ومهما كانت جيوشك قوية ، فأنت فى حاجة إلى أن يناصـرك السكان حتى تمتلك الولاية . ولـهذه الأسبـاب فقـد لويس الثانى عشر ملك فرنسا ميـلانو فى الحال بالرغم من أنه استطاع احتلالها دون عناء ؛ كانت قوات لدوفيكو Ludovico وحدها كافية لأن تأخذها منه فى المرة الأولى ، لأن أهلها الذين فـتحوا أبوابهم للملك فرنـسا راغبين ضـاقـوا ذرعا بحكم أمـيرهم الجـديد ، حين وجـدوا أملهم العـزيز وقـد خاب ، ولم ينالوا الفوائد التى تطلعوا إليها .

حقا ، إن الأقاليم التى تشق عصا الطاعة يصعب ضياعها مرة أخرى بعد استعـادتها من جديد ، لأن الحاكم يكون حينئذ أشـد رغبة فى تأمين مركزه بمعاقـبة المعتدين ، وكشف الشكوك ، وتقوية نـقط ضعفه ، ولذا فعلى الرغـم من مجرد ظهـور شـخص مـثل دوق لدوفيكو على الحدود كان هذا كافيا ليتسـبب فى ضياع مـيلانو من فرنسا فى المرة الأولى . ولم يكن فقدان سـيطرتها عليها فى المرة الثـانية ممكنا إلا حينما كـانوا يقفون كافة ضـدها ، وبعد أن هزمت جيوشهـا وطردت من إيطاليا . وكان هذا نتـيجـة للعلل التى سبـق أن ذكرناها ، ومع ذلك أخـذت منها فى كـلا المرتين . ولقد سـبق أن ناقشنا الأسبـاب العامة لضـياعهـا منها فى المرة الأولى منذ برهة وجـيزة ، ولا يبـقى الآن للنظر سـوى معـرفة أسـباب

الهزيمة الثانيــة ، وما هى الوسائل التى كان يمكن بها لفـرنسا أن تتجنب تلك الهزيمة ، ولم يتخذها ملك فرنسا، وكان يمكن لحاكم آخر أن يتذرع بها فى هذا الموقف . وعلى ذلك لنلاحظ أن تلك الولايات التى كانت عند الضم متحـدة مع ولاية لها وجود سابق إمـا أنها تشترك مـعها فى نفس الجنسية واللغـة ، أو لا تشترك . وفى الحالة الأولى يكون الاحتـفاظ بها يسيرا جداً ، وخاصة إذا لـم تكن قد ألفت الحرية . ولكى نملكها بسلام يكفى أن نمحى من الوجـود أسرة الحكام الذين سبـق أن حكموها ، لأن غير هؤلاء يستقرون بهـدوء فى ظل حكامهم الجدد مالم تضطرب حالتهم القـديمة ، ولم يكن ثمة اختـلاف فى العـادات ، كمـا شوهد فى حـالة بورغانديا Burgundy ، وبريتانيا Brittany ، وجاسكونيا Gascony ، ونورماندیا Normandy ، التى اتحدت مع فرنسـا زمنا طويلا جدا ، ومع أنه قد يكون ثمة اختلاف بسيط فى اللغة ، إلا أن عادات الشعب متشابهة ، ويمكن أن تسيـر معا سـيرا حسنا . ويجب على كـل من يحصل على ملك مثل هذه الأقاليم ، ويريد أن يحـتفظ به ، إلا ينسى أمرين : الأول ، أن يعفى الزمن على دم حـكامهم القدامـى . والثـانى ، ألا يقوم بـأى تغيـير فى قوانينهم أو ضـرائبهم ، وبهذه الطريقـة سوف تتحـد الأملاك الجديدة مع القديمة وتكون ولاية واحدة فى وقت قصير جداً .

ولكن حين نستولى على ممتلكات فى منطقـة تختلف معنا فى اللغة ، والقـوانين ، والعادات ، فـإن الصعـوبات التـى لابد من التـغلب عليهـا

عظيمة ، ونحن فى حاجة إلى حسن طالع كبير ويقظة عظيمة لكى نحتفظ بها . وإقامة الحاكم الجديد فيها من آكد الوسائل وأحسنها لذلك . وهذه الوسيلة قد تجعل الامتلاك أكثر سلامة ودواما ؛ وهذا ما فعل الأتراك فى بلاد الأغريق . فعلى الرغم من جميع الوسائل الأخرى التى اتخذها السلطان للاحتفاظ بتلك الولاية لم يصبح ذلك ممكنا له إلا حينما ذهب وعاش هناك . فحين يكون الأمير فى المكان المقصود يستطيع أن يرى القلاقل وهى تظهر ، ويمكن علاجها بسرعة . ولكن حين يعيش بعيدا يسمع عنها فحسب عندما لا يعود لها علاج . وفضلا عن ذلك ، فإن رجاله الرسميين لا ينهبون البلاد ؛ لأن الرعايا يمكن أن يرضيهم أتصالهم المباشر بأميرهم ؛ وحين يرغبون فى الولاء له يكون لديهم سبب أقوى لمحبته . وإذا كان لهم ميل آخر فسوف يكون لديهم علة كبرى لكى يهابوه . كما أن إقامته ستقلل من أن تميل دولة خارجية إلى غزو تلك الولاية ، حتى أنه كلما طالت إقامته فيها صعب جدا تجريده منها .

والعلاج الآخر ، وأحسن العلاجين ، هو إقامة مستعمرات فى مكان أو مكانين من تلك الأمكنة التى هى مفاتيح للبلاد ؛ لأنه لابد من أحد أمرين ، إما أن نفعل ذلك ، أو نحتفظ بقوة مسلحة كبيرة . إن المستعمرات سوف تكلف الأمير قليلا ؛ فهو يستطيع من جانبه ، بتكاليف بسيطة أو بلعونها ، أن يرسل ويحتفظ بالمستعمرات . وهو بهذا لا يضر سوى أولئك الذين قد أخذت منهم أراضيهم ومنازلهم وأعطيت للسكان

الجدد ، وهؤلاء لا يكونـون سوى نسبـة ضئيلة من الـولاية ؛ والذين قد أصابهم الضـرر ، لا يمكن أن ينالوه بأذى ، فهم يظلون فـقراء مشـتتين وغير هؤلاء ، من السهل تهدئتهم جمـيعا . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فـإن من لم يصبـهم الضرر يخافـون أن يصيـبوه بأذى خشـية أن يعاملوا معـاملة أولئك الذين قد جردوا من أملاكهم . وقـصارى القول ، لا تكلف هذه المسـتعـمـرات شيـئا ، وهى أكـثر ولاء ، وأقل ضـررا ؛ والفئات التى قد نالها الضرر عـاجزة عن أن تقوم بما يؤذيك ، فهم فقراء مـشتـتون كـما أوضـحت . لأنه يجب أن نلاحظ أن الرجـال يجب أن يعاملوا معـاملة رجبة ، أو أن يمحقوا مـحقا تاما ؛ فهم يثـأرون لأنفسهم للإهانات التافهة ، ولكنهم لا يستطيعـون الانتقام للكبير منها . ولذا فإن إهانتنا لإنسان لابد وأن تكون إهانة تغنينا عن أن نخشى معـها انتقامه .

ولكن إذا احتفظ الحاكم بحامية بدلا من سكان المستعمرات ، فسوف ينفق على الحامية أكثر من ذلك كثـيرا ، ويستهلك جميع موارد هذه الولاية فى حراستها حتى تنجم الخسـارة عن الاستيلاء عليها . ويضاف إلى ذلك ، أن ضرر الحامية كبير ، لأن كل فرد فى تلك الولاية تؤذيه عسكرة الجيش فيها . ولما كـانت هذه مضايقة للجميع ، فـإن كل فرد فى الولاية يصبح عدوا ، وهؤلاء أعداء قادرون على الإضرار بك ، فهم لا يبرحون منازلهم الخـاصـة ، على الـرغم من أنهم مـغلوبين . ولهــذه الأسـبـاب تكون المستـعمرات مـفيدة من جـميع النواحى على قدر مـا تكون الحاميـة عديمة الفائدة .

وزيادة على ذلك ، ينبغى لحاكم إقليم أجنبى ، كما قررت أن يتزعم جيرانه الضعفاء ويدافع عنهم ، وأن يعمل على إضعاف جيرانه الأقوياء ، وأن يحذر من أن يغزوهم أجنبى أقوى منه ؛ وسوف يكون الأمر دائما أن غير الـراضين سيدعونه للتـدخل إما بسبب الطمع أو الخوف ، كـما رأينا حين استدعى الإيتوليون AEtolians الرومان إلى بلاد الإغريق . إن أية ولاية دخلهـا الرومـان كـان بناء على طلب السكان . والقـاعـدة هى أن الأجنبى القوى حين يدخل إقليما يصبح جمـيع الضعفاء أتباعا له ، وهم مدفـوعون فى ذلك بالحقـد على أولئك الذين يحكمـونهم ، حتى أنه لا يتكبد أى عناء لكى يضم إلى جانبـه هذه القوى الصغيرة ، لأنها جـميعا تنضم برغبـتهـا إلى قوات الولاية التى قامت بالاسـتيـلاء . وليس عليه سوى أن يحترس من أن ينالوا سلطانا مفرطا وقوة . وبعناصرتهم وبقواته يستطيع أن يسحق الأقوياء منهم ، ويظل هو فيصل تلك المنطقة فى جميع الأمـور . إن من لا يحسـن الحكم بهذه الطريقة سـرعان مـا يفقد مـا قد استـولى عليـه ، وسوف يلاقى صعوبة وعنـاء لاحد لهـمـا أثناء السيطرة عليه .

لقد نهج الرومـان دائما على هذه السياسة فى الولايـات التى استولوا عليهـا . أنشأوا المستعمـرات ، وحافظوا على علاقات الصـداقة مع الدول الصغيرة دون أن يزيدوا قوتها ، وأضعـفوا الأقوياء ، ولم يتيحوا للحكام الأجانب أن يحصلوا على نفوذ فيـهم . وسوف أضرب مثلا لذلك بولاية

بلاد الإغـريق كمـثال فـريد . لقـد ارتبط الرومان بالآخـيين Achaens والإيتوليين بروابط الصداقـة ، ولم تجعل خدماتهم للرومان يتـيحون لهم أن يحصلوا عـلى أقل توسع فى إقليمـهم ، وأضعفـوا مملكة مقـدونيا ، وطردوا أنتيوكس Antiochus ، ولم تغرهم بصـداقة فيليب استـمالاته لهم دون أن يضعفوا نفوذه ، ولم تجعلـهم قوة أنتيوكس يوافقون على أن يجيزوا له السيطرة على أية ولاية فى تلك المنطقة .

لأن الرومان سلكوا فى هذه الأحوال مسلك جـميع الأمراء العقلاء ، الذين لا يقف نظرهم عند الاضطرابات الراهنة فـحسب ، بل ويحسـبون حسـاب الاضطرابات المقبـلة أيضاً ، ولا يفـترون فى اتقـاء شرها ؛ لأن المتاعب حين ترى مقـدما يمكن علاجها بسـهولة ، ولكن إذا انتظرنا حتى تدهمنا ، فالدواء يتأخر ميعاده ، كـما وأن الداء يستعصى . ويحدث هنا ما يحدث فى تلك الحمـيات غير المستقرة كمـا يقول الأطباء - عند بدئها يصعب التـفسـير ويسهل العـلاج ، وفيمـا بعد تصبـح معرفـتها يسـيرة ويصعب العلاج . وهذه هى الحال فى شئون الدولة - حن نرى من بعيد الأخطار المتوقعـة (بعد النظر من صفات الحكيم بمفرده) يسهـل علاجها ، ولكن حين ندعها تسـتفحل حتى يعرفـها الجميع بسبب الافتـقار إلى بعد النظر هذا ، لا يوجـد بعـد أى دواء . ولذلك فإن الـرومان حين كـانوا يلاحظون الاضطرابات وهى مـازالت بعـيدة اسـتطاعـوا دائما أن يجـدوا العلاج لها ، ولم يتـيحوا لها أبدا أن تزداد لكى يتحـاشوا بذلك حربا ،

لأنهم عرفوا أن الحرب لا مناص منها ، ولا يمكن تأجيلها إلا لصالح الطرف الآخر ولهذا أعلنوا الحرب على فيليب وأنتيوكس فى بلاد الإغريق حتى لا يضطروا إلى محاربتهما فى إيطاليا ، مع أنه كان فى إمكانهم أن يتحاشوا فى حينه هذه الحرب أو تلك ، وهذا ما لم يقع عليه اختيارهم ليقوموا به ، فلم يأبهوا أبدا لأن يفعلوا بما يسمع كل يوم من أفواه حكمائنا ، أى أن ننعم بمزايا الإبطاء والتأخير ؛ ولكنهم آثروا الاعتماد على قدرتهم وحكمتهم ، لأن الزمن يجلب معه جميع الأمور ، الخير والشر على السواء .

ولكن لنرجع إلى فرنسا ونفحص ما إذا كانت قد قامت بأى أمر من هذه الأمور ، وسأتحدث عن لويس دون شارل ، لأنه يحسن بالمرء النظر إلى الإجراءات التى اتخذها الأول ، فقد ملك فى إيطاليا مدة أطول ، وسنرى حينئذ أنه قام بعكس جميع تلك الأمور التى يجب أن نقوم بها للاحتفاظ بالملك فى ولاية أجنبية لقد استدعى مطمع البنادقة دخول الملك لويس إيطاليا ؛ وهؤلاء رغبوا فى كسب نصف لمبارديا من وراء ذلك . إننى لن ألوم الملك على دخول إيطاليا ، ولا على نصيبه منها ، لأنه كان مضطرا إلى قبول أية صداقة أمكنه أن يجدها عندما رغب فى أن يضع قدمه فى إيطاليا ، ولم يكن له أصدقاء فيها ، بل كانت جميع الأبواب - على العكس - موصدة فى وجهه من جراء مسلك الملك شارل . وكان من الممكن أن تكلل مشروعاته بالنجاح السريع لو لم يرتكب فيما جرى عليه أخطاء أخرى .

قد استعاد الملك مباشرة ، بمجرد الاستيلاء على لمبارديا ، السمعة التى أضاعها شارل . سلمت جنوا Genoa ، وأصبح الفلورنسيون أصدقاء له ، وتقرب إليه دون استثناء مركيز مانتوا Mantua ، وأدواق فرارا ، وآل بنتيفولى Bentivogli ، وسيدة فورلى Forli ، وسادة فائنزا Faenza وبيزاو Pesaro وريمينى Rimini وكاميرينو Camerino وبيومبينو Piombino ، وأهل لوقا Lucca وبيزا Pisa وسينا Sienna . وكان فى إمكان البنادقة حينذاك أن يروا آثار طيشهم ، وكيف أنهم جعلوا الملك حاكما لما يربو على ثلثى إيطاليا ليكسبوا هم بذلك مدناً قليلة فى لمبارديا .

وما كان أسهل أن يحافظ الملك على سمعته فى إيطاليا لو راعى القواعد التى سبق الكلام عنها ، وسيطر سيطرة محكمة وثيقة على جميع أولئك الأصدقاء الذين كانوا كثيرين وضعفاء ، منهم مَنْ يخشى الكنيسة ومن يخشى البنادقة ، ومن ثم كانوا مضطرين دائما إلى أن يلتصقوا به ، وكان يستطيع فى سهولة بمساعدتهم أن يأمن جانب أى واحد منهم مازال قويا . ولكن لم يكد يدخل ميلانو حتى فعل العكس بأن ساعد البابا الإسكندر على احتلال رومانا Romagna ، ولم يفطن إلى أنه أضعف نفسه بالسير فى هذا الطريق ، بأن تخلى عن أصدقائه ، وعمن لاذوا به ، وقوى الكنيسة بأن أضاف سلطات زمنية أخرى إلى قوتها الروحية التى منها تستمد مثل هذا السلطان . ولما كان قد أخطأ أولا اضطر إلى أن

يستمر فى الخطأ ، وإلى أن يدخل إيطاليا عندما كان يوقف أطماع الإسكندرية ويمنعه من أن يصبح حاكم توسكانيا . ولما كان غير راض عن إنماء قوة الكنيسة ، وفقد أصدقاءه ، وكان يطمع حينئذ فى مملكة نابولى ، اقتسمها مع ملك أسبانيا ، وجلب حينذاك شريكا له فى إيطاليا حيث كان هو بمفرده الفيصل ، حتى أمكن أصحاب المطامع الساخطون عليه فى ذلك الأقليم أن يجدوا غيره يلوذون به ؛ وحيث كان يمكنه أن يترك فى هذه المملكة ملكا يخضع له ، اغتصب ملكه لكى يأتى بغيره قادرا على أن يطرده هو منها .

إن الرغبة فى التملك أمر طبيعى وعادى جدا . وعندما يملك أولئك الذين يستطيعون ذلك بنجاح يطرون دائما ولا لوم عليهم ولكن العاجزين عن ذلك ، بيد أنهم يرغبون فيه بأى ثمن ، يرتكبون خطأ يستحق اللوم الشديد . فلو كان لفرنسا ، على هذا الأساس ، قدرة على الاستيلاء بقواتها الخاصة على نابولى ، لكان ينبغى لها أن تفعل ذلك ، وإلا فما كان يجب عليها أن تقتسمها . وإذا غفرنا لها اقتسام لمبارديا مع البنادقة ، لأنه كان الوسيلة التى أتاحت للملك فرنسا أن يضع قدمه فى إيطاليا ، فإن الاقتسام الآخر يستحق اللوم ، لأن الضرورة لم تبرره .

وهكذا ارتكب لويس خمس أخطاء – لقد دمر الدول الصغيرة ، وزاد من نفوذ دولة واحدة فى إيطاليا ، وأتى فى البلاد بأجنبى قوى جداً ، ولم يذهب ليعيش هناك بشخصه ، ولم ينشئ أية مستعمرة . وما كان

ليصيبه من الأخطاء ضرر لو لم يخطئ الخطأ السادس ، وهو أخذ الولاية من البندقية . فلو أنه لم يقو الكنيسة ، ولم يأت بالأسبانيين إلى إيطاليا، لكان كسر شوكتهم أمراً ضروريا وصحيحا . ولما كان قد اتخذ تلك الأساليب كان عليه ألا يوافق على هدمهم أبدا ، لأن البنادقة لو كانوا أقوياء لأمكنهم أن يتصدوا لمحاولات الآخرين غزو لمبارديا . فمن ناحية ، لم يكن يمكنهم أن يقبلوا أية إجراءات بها لا يحصلون عليها لأنفسهم . ومن ناحية أخرى ، ما كان للآخرين أن يرغبوا فى أخذها من فرنسا لكى يعطوها للبندقية ، وما كانت لهم الشجاعة على مهاجمة الأثنين معاً .

وإذا كان لأمرئ أن يقول : إن الملك لويس سلم رومانا إلى الاسكندر ، ومملكة نابولى إلى أسبانيا ، حتى يتحاشى بذلك حربا ؛ أرد عليه وأقول بناء على الأسباب التى قدمتها منذ مدة وجيزة : ينبغى للحاكم ألا يجيز أبدا قيام اضطراب لكى يتجنب بذلك حربا ، لأن الحرب لاتتجنب بهذه الطريقة ، بيد أن تأجيلها لا يضر أحدا سواك . وإذا زعم آخرون أن موقف الملك لويس يعزى إلى أنه وعد البابا بالقيام بتلك الحملة لحسابه فى مقابل تطليقه للملك من زوجته ، وإسناد الكاردينالية إلى روهان Rohan ، أرد بما سوف أذكره فيما بعد عن وعود الأمراء ، وكيف ينبغى مراعاتها . وهكذا أضاع الملك لويس لمبارديا ، لأنه لم يراع أية حال من تلك الأحوال التى قد راعاها الآخرون الذين استولوا على

الأقاليم ورغبوا فى الاحتفاظ بها . وهذا ليس بأمر غريب ، ولكنه منطقى وطبيـــعى . تحـدثت فى هذا الصـــدد مع الكاردينال روهان فـى نانتس Nantes وقالنتين كمـا هو الاسم المشهـور لقيـصر بورجاولـد البابا ، يحتل رومانا . قال لى الكاردينال : إن الإيطاليين لم يفهموا معنى الحرب . وأجبتـه بأن الفرنسيين لم يفهمـوا معنى السياسـة ؛ لأنهم لو كانوا قد فهموها لمـا أتاحوا للكنيسة أن تصبح قوية جـدا . وتدلنا التجربة على أن عظمة الكنيسة فى إيطاليا وفى آسبـانيا أيضاً ، تعزى إلى فرنسا وكذلك يرجع إليها سقـوط الكنيسة . ومن ذلك يمكننا أن نستخلص قـاعدة عامة صادقة دائما ، ولا تكذب إلا فيما ندر ، وهى أن كل من يكون سبباً لأن يصبح غيره قوياً يهلك هو نفسه ؛ لأنه يفعل ذلك إما عن طريق الحيلة ، أو عن طريق القوة، وهذان الأمران موضع شك من ارتفع إلى السلطان .

الباب الرابع

لماذا لم تثر مملكة داريوس ، وقد احتلها الإسكندر على خلفائه عقب وفاته

وعند النظـر إلى الصـعـوبات الـتى تكون فى السيـطرة على ولاية الاستـيلاء عليـها جديد ، قـد يعجب البـعض : كيف حـدث أن أصبح

الإسكندر الاكبر سيد اسيا فى سنين قليلة ، ولم يكد يحتلها حتى عاجلته المنية ، ولم تثر الولاية كلها على خلفائه ، وكان المفروض عكس ذلك ، واحتفظ خلفاؤه بملكها لأنفسهم ، ولم يعانوا صعوبات فى ذلك سوى تلك التى ظهرت فيما بينهم بسبب مطامعهم الخاصة ؟

وأجيب على ذلك بأن الممالك التى عرفها التاريخ قد حكمت بطريقتين : إما حكمها أمير وأتباعه ، يساعدونه فى حكم المملكة كوزراء بفضله وإجازة منه ، أو حكمها أمير ونبلاء يتبوأون مراكزهم بدون مساعدة من الأمير ، ولكن لقدمهم . ولمثل هؤلاء النبلاء ولايات ، ومواطنون لهم خاصة يعترفون بهم سادة عليهم بطبيعة الحال . وللأمير فى تلك الولايات التى يحكمها أمير وأتباعه سلطان أكبر من سلطان الأمير الثانى ، لأنه لا يوجد فوقه سواه . وإذا كان يدان لغيره بالطاعة ، فما ذلك إلا لأنهم وزراء الأمير ورجاله الرسميون ، ولا أحد يحمل لهم ودا خاصا بهم .

ولهذين النوعين من الحكم فى عصرنا مثالان هما : حكومة تركيا ، وحكومة ملك فرنسا . إن حاكما فردا يحكم المملكة التركية جميعها ، وغيره أتباع له . وهو يقسم المملكة إلى «سنجقيات» ، ويرسل إليها حكاما إداريين متباينين ، ويغيرهم ويستدعيهم كما يروق له . ولكن ملك فرنسا يحيط به عدد كبير من النبلاء القدامي ، يعترف لهم رعاياهم بحالتهم هذه ، ويدينون لهم بالولاء ، ولهم امتيازاتهم التى لا يقدر الملك على أن يحرمهم منها دون أن يعرض نفسه للخطر . وكل من ينظر الآن إلى

هاتين الدولتين يرى أنه يصعب الاستيلاء على دولة الأتراك ، ولكن تسهل جدا السيطرة عليها إذا هزمت . ومن ناحية أخرى ، فإن قهر مملكة فرنسا أمر أسهل من ذلك من وجوه كثيرة ، ولكن ثمة صعوبة كبيرة فى السيطرة عليها .

وعلل صعوبة احتلال المملكة التركية هى أن المحتل لا يمكن أن يستدعيه إليها أمراء تلك المملكة ، كما لا يلوح له أمل فى أن تجعل حملته يسيرة ثورة يقوم بها أولئك الذين بجانب الحاكم ، كما يتضح ذلك من الأسباب التى قدمناها . إن إفسادهم أمر صعب لكونهم جميعا عبيدا للسلطان وأتباعا له . وحتى لو فرضنا أننا أفسدناهم فلا أثر كبير يرجى من وراء ذلك ، لأنهم لا يستطيعون أن يضموا الشعب إليهم ، وذلك لما ذكرنا من أسباب . ولذا فعلى كل من يهاجم سلطان الأتراك أن يستعد لملاقاة قواته المتحدة ، وأن يركن إلى قوته الخاصة أكثر مما يعتمد على الاضطرابات التى يقوم بها غيره . ولكن إذا كسر السلطان وهزمه تماما فى حرب ، فما من شئ ليخافه سوى أسرة الأمير ، فلو محق هذه من الوجود . لا يعود هناك من يخشاه ، لأن غيرهم ليس لهم سلطان على الشعب . ولما كان المنتصر لا يستطيع قبل النصر أن يأمل فيهم ، فهو يخشاهم بعد النصر .

والحال عكس ذلك فى الممالك التى حكمها مثل حكم مملكة فرنسا ؛ لأن دخولها سهل يسير بأن يكسب الأمير بعض نبلاء المملكة فى صفه ، حيث أن هناك دائما الساخطين ، وأولئك الذين يرغبون فى تجديد

الأوضاع القـديمة . إن هؤلاء يستـطيعون أن يـفتحـوا لك الطريق ، وأن يجعلوا لك النصر سهل المنال ، وذلك للأسـباب التى سبق أن قررتها . ولكن تظهر فـيما بعد صـعوبات لا نهاية لهـا لو أنك أردت الإبقاء على الملك ، سواء من جانب أولئك الذين مـدوا إليك يد المساعة ، أم ممن قد تعسفت مـعهم . ولن يكفيك أن تتخلص نهائيا من أسـرة الأمير : لأنه يبقى هناك أولئك النبلاء الذين سيـقودون الثورات الجديدة ؛ ولما كنت لا تسـتطيـع إرضـاءهم ، أو إفناءهم فـإنك تفـقد الولاية مـالاحـت فرصـة لذلك .

والآن ، لو نظرت فيما كانت عليه طـبيعة حكم داريوس فإنك تجدها شبـيهة بمملكة الأتراك ؛ ومن هنـا كان الإسكندر أن يقلبهـا تماما ، وأن يغزو المنطقة . وبعد هذا الغزو ، ومـوت داريوس ، استتبت أمور الولاية له ، وذلك للأسباب التى سبق أن ناقشناها . ولو ظل خلفاؤه متحدين، لطاب لهم ملكهـا فى سلام ، لما حـدثت أية قلاقل فى المملكة سـوى ما أثاروه هم أنفسهم . ولكن من المستحيل أن نملك بمثل تلك السهولة بلادا كفرنسا فى نظامها الأساسى . وهذا هو سر الثورات ، بين وقت وآخر ، ضـد الرومـان ، فى أسـبـانيـا ، وفـرنسـا . وبلاد الإغـريق ، نـظرا للإمـارات العـديـدة التى وجـدت فى تلك الولايات . لقـد ظل الفـتح الرومانى مزعزع الأركان حتى امحى ذكر هذه الإمارات تماما ولكن مع قوة الإمبـراطورية ودوامها وامـحاء هذا الذكر أصبـح الرومان سادة لا منافس لهم . وحين دب بينهم الخلاف كان فى مـقدور أى واحد منهم أن يعول

على تأييد ذلك الجزء من المنطقة الذى أقام فيه سلطانه . ولم يعترف بالرومان كحكام هناك إلا بعد انقراض أسرة الأمراء القديمة . فإذا نظرنا إلى هذه الأمور ، فليس لإنسان أن يعجب إذن للسهولة التى استطاع بها الإسكندر أن يسيطر على آسيا ، ولا تدهشه الصعوبات التى لاقاها غيره فى السيطرة على أقاليم فتحها ، مثل بايروس Pyrrhus وكثير غيره ؛ لأن العلة هنا ليست قدرة الفاتح تضاءلت أم عظمت ، ولكن الأمر يتوقف على اختلاف الظروف .

الباب الخامس

فى طريقة حكم المدن والبلاد التى كانت تعيش قبل احتلالها فى ظل قوانينها الوطنية

وعندما تكون تلك الولايات التى قد استولينا عليها معتادة على الحياة الحرة فى ظل قوانينها الخاصة ، فثمة ثلاث طرق للسيطرة عليها . الأولى ، أن يخربها الأمير. والثانية ، أن يذهب ليعيش هناك بشخصه. والثالثة ، أن يجيز لها أن تعيش فى ظل قوانينها الوطنية ، ويحصل منها على الجزية ، ويقيم فى داخل البلاد حكومة تتألف من عدد قليل يحافظ عليها صديقة لك . ولما كانت هذه الحكومة صنيعة الأمير ، فهى تعلم

أنها لا تستطيع أن تبقى بدون صداقته أو حمايته ، وسوف لا تدخر وسعا للمحافظة عليهما . وزيادة على ذلك ، فإنك إذا رغبت بطريقة أسهل فى أن تحتفظ بمدينة اعتادت على الحرية ، فيمكنك أن تسيطر عليها بأسهل الطرق قاطبة ، ألا وهى أن تجعل حكامها من مواطنيها .

ومثال ذلك الإسبرطيون والرومان . لقد سيطر الإسبرطيون على أثينا وطيبة Thebes بأن أقاموا فى داخلها حكومة أقلية ، ومع ذلك ضاعتا منهم . وخرب الرومان كابوا Capua ، وقرطاجنة Carthage ، ونومنطة Numantia ، من أجل السيطرة عليها ، ولكنهم لم يفقدوها . وأرادوا أن يسيطروا على بلاد الإغريق بطريقة تقرب من تلك التى بها سيطر الرومان عليها ، بأن تركوها حرة تحيا فى ظل قوانينها الوطنية ، ولكنهم لم يوفقوا ، حتى اضطروا ، من أجل الاحتفاظ بها ، إلى أن يخربوا مدنا كثيرة فى تلك المنطقة . ويرجع ذلك إلى أنه لا توجد فى حقيقة الأمر طريقة أكيدة للسيطرة عليها سوى تخريبها . ويمكن لكل من يصبح حاكما لمدينة حرة ولا يخربها أن يتوقع منها تدميرها هى له ، لأنها ستجد على الدوام الدافع إلى الثورة باسم الحرية ، وباسم أوضاعها القديمة ، وهذه أمور لا تنسى ، لا بمرور الزمن ، ولا بما يعود على أهلها من مزايا . ومهما فعل الحاكم ، ومهما احتاط للأمر ، فإنهم لن ينسوا ذلك الاسم ، أو تلك الأوضاع ، ولكنهم سيستجيبون لندائها فى الحال عند كل طارئ ، كما فعلت بيزا بعد أن سيطر الفلورنسيون عليها

واستعبدوها سنين طويلة . ولكن يستطيع الأمير أن يكسبهم فى جانبه ، وأن يقيم نفسه فيها آمنا ، وذلك بصورة أيسر ، حينما تكون هذه مدنا أو مناطق قد ألفت من قبل الحياة فى ظل أمير قد انقرضت أسرته . لأنها ألفت الخضوع من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، لا يمكنها ، وقد فقدت أميرها القديم ، أن تجمع كلمتها على اختيار واحد من أبنائها ليكون أميرا ؛ فهى لا تعرف كيف تعيش حياة حرة . وعلى ذلك فهى ، لهذه الظروف ، أبطأ من غيرها فى شهر السلاح عليه . ولكنا نجد فى الجمهوريات حياة أعظم من هذه الحياة ، ومقتا أشد ، ورغبة فى الانتقام أقوى . إنها لا تذر جانبا ذكرى حريتها القديمة ، ولا تستطيع ذلك ، ومن هنا فإن أوثق الطرق للسيطرة عليها هى : إما تخريبها ، أو الإقامة فيها .

الباب السادس

فى الولايات الجديدة التى قد اكتسبت بأسلحة الأمير الخاصة وقدراته

لا عجب إذا كنت قد قدمت أمثلة عالية جدا ، سواء فيما يتصل بالأمير أو الولاية ، وذلك أثناء الحديث عن الولايات الجديدة ؛ لأن

الناس يغلب عليهم السير دائما فى الدروب التى طرقها غيرهم ، وأن يجروا أعمالهم على جادة المحاكاة . ولما كان الرجل الحد القلب لا يستطيع دائما أن يقتفى تماما آثار الآخرين ، ولا يتسنى له أن يبلغ امتياز أولئك الذين نقلدهم فينبغى له دائماً أن يسير على الدرب الذى طرقه عظماء الرجال ، وأن يقلد أولئك الذين بلغوا أعلى درجات الامتياز ، حتى إذا لم يبلغ درجتهم من العظمة ، فإنه ينال منها ، على أية حال ، قدرا ما . وسوف يصنع المرء صنع الرماة العارفين الذين يصوبون إلى نقطة أعلى بكثير من تلك التى يرغبون فى إصابتها عندما تكون بعيدة جدا ، ويعرفون مدى إطلاق قوسهم للسهم ، لا لكى يصيبوا بسهمهم هذا الارتفاع ، ولكن ليصيبوا بوساطته الهدف المرغوب فيه .

وعلى ذلك أقول : تتفاوت السيطرة على زمام الأمور فى الولايات الجديدة التى يوجد فيها أمير جديد تبعا لقدرة من يستولى عليها . ولما كان بلوغ فرد عادى مرتبة الإمارة بالفعل يفترض فيه مقدما قدرة فائقة ، أو حظا سعيدا ، يبدو أن أحد هذين الأمرين أو الآخر قد يخفف بدرجة معينة مصاعب جمة . ومع ذلك ، فإن أولئك الذين لم يركنوا إلى حسن الطالع إلا قليلا صانوا أنفسهم على أحسن وجه . ويخفف أيضا العبء عن الأمير ضرورة إقامته شخصيا فى إقليمه الجديد ، حين لا يكون له غيره . ولكن عندما نتحدث عن أولئك الذين أصبحوا حكاما بفضل قدراتهم الممتازة ، لا بفضل الحظ ، أعد أعظمهم جميعا موسى

Moses ، وقورش Cyrus ، وروملوس Romulus ، وتيسيوس Theseus وأشباههم . ومع أن المرء لا ينبغى له أن يتحدث عن موسى ، لا شئ سوى أنه رسول الله الذى عمل بما أمره به ، إلا أن يظل جديا بالإعجاب ، ولو لمجرد ذلك الفضل الذى جعله أهلا لأن يكون كليم الله . ولكن إذا نظرنا إلى قورش وغيره الذين كسبوا الممالك وأرسوا قواعدها فسوف نجدهم جميعا يستحقون الإعجاب . وإذا اختبرنا أعمالهم الخاصة ومناهجهم فلن تظهر مختلفة اختلافا كبيرا عن أعمال موسى ، بالرغم من أنه كان رسول الله . فإذا اختبرنا حياتهم وأعمالهم فسوف نرى أنهم لم يدينوا بشئ إلى الحظ، ولكن الفرصة هي التى وهبتهم المادة التى صاغوها فى الصورة التى رأوها مناسبة . فلو لم تكن تلك الفرصة لضاعت قدراتهم هباء ، ولو لم تكن قدراتهم لأصبحت الفرصة دون جدوى .

وهكذا كان من الضرورى أن يجد موسى شعب إسرائيل عبيدا فى مصر يضيمهم المصريون ، حتى يصبحوا على استعداد للسير خلفه لكى يتخلصوا من العبودية . وكان ضروريا ألا يستطيع روملوس البقاء فى آلبا Alba ، وأن يترك فى العراء يوم ميلاده حتى يصبح ملك روما ، ومؤسس تلك الأمة . وكان لابد من أن يجد قورش الفرس ساخطين على إمبراطورية الميديين Medes ، وأن يجدوا هؤلاء منحلين ومتخنثين من جراء السلم الطويل . ولو لم يكن تيسيوس قد وجد الأثينيين مشتتين لما

أمكنه أن يبين عن قدراته . إذن ، لقد منحت هذه السوانح هؤلاء الرجال فرصتهم ، ومكنتهم خصالهم العظيمة من الاستفادة منها ، لكي يجعلوا أوطانهم كريمة عزيزة ، ويزيدوها فلاحا وسعدا .

وأولئك الذين يصبحون كهؤلاء أمراء بتدريب قدراتهم يحصلون على ولاياتهم بصعوبة ، بيد أنهم يحافظون عليها بسهولة . والصعوبات التى يلاقونها فى ذلك ترجع ، من ناحية إلى القواعد والتعديلات الجديدة التى يضطرون إلى إدخالها لكى يقيموا ولايتهم بسلام . ويجب أن نعتبر أن ليس هناك ما هو أصعب من أن نبدأ نظاما جديدا للأمور ومن تنفيذه ، ونجاحه مشكوك فى أمره ، ولا يوجد ما هو أخطر من تناوله . لأن للمصلح أعداء بين جميع أولئك الذين يفيدون من النظام القديم ، ومن يؤيدونه (المصلح) تأييداً فاتراً بين كافة أولئك الذين قد يفيدون من النظام الجديد . ويرجع هذا الفتور ، من ناحية إلى أنهم يخشون خصومهم الذين يكون القانون فى صالحهم . ويعزى ذلك ، من ناحية أخرى ، إلى قابلية البشر لعدم التصديق ، فهم لا يؤمنون بأى جديد إيمانا صادقا حتى يجربوه بالفعل . وعلى ذلك يهاجم المصلح بحماس شديد خصومه فى كل فرصة بينما يدافع عنه سواهم دفاعا فاترا ، حتى أنه يواجه الخطر العظيم بين هؤلاء وأولئك . ولذا فلابد من أجل تحرى الحقيقة تماما فى هذه المشكلة أن نبحث فيما إذا كان يستطيع هؤلاء المجددون أن يعولوا

على أنفسهم ، أو هم مضطرون إلى الاعتماد على غيرهم . وبعبارة أخرى تقول : هل من الضرورى لهم لكى ينفذوا ما رسموه أن يستميلوا غيرهم ، أو هم يستطيعون القهر ؟ وهم ، فى الحالة الأولى ، لا يفوزون دائماً إلا فوزا هزيلا ، ولا ينجزون شيئاً . وهم لا يفشلون إلا فيما ندر حينما يكون فى وسعهم الاعتماد على سلطانهم الخاص ، واستخدام القوة . وعلى ذلك حدث أن انتصر جميع الأنبياء غير العزل . والسبب ، بالإضافة إلى ما قيل ، أن طبيعة البشر متقلبة .

ومن السهل أن نستميلهم إلى أمر من الأمور ، ولكن من العسير أن نبقى على إيمانهم هذا . ومن هنا لزم ترتيب الأمور بحيث يمكننا استخدام القوة لنكرههم على الإيمان ما ارتدوا عنه . لو كان موسى وقورش وتيسيوس وروملوس عزلا لما استطاعوا أن يجعلوا غيرهم يراعون دساتيرهم أمدا طويلا ، كما حدث فى زماننا هذا للأخ جيرولاموسافونارولا Fra Girolamo Savonarola الذى فشل فى شرائعه الجديدة فشلا ذريعاً حينما أخذت جمهرة الناس تكفر به ، ولم يكن لديه من وسيلة للإبقاء على المؤمنين فى صفه ، أو ليحمل من لم يؤمن به على الإيمان . ولذا يعانى أمثال هؤلاء الرجال صعوبة عظيمة فى شق طريقهم ، وجميع الأخطار التى يلاقونها تحدق بهم فى الطريق ، وعليهم أن يتغلبوا عليها بقدراتهم الخاصة . ولكن حينما تتم لهم الغلبة عليها ، ويشرع القوم فى تقديسهم ، ويبطشون بأولئك الذين يحسدونهم ، فإنهم يظلون أقوياء آمنين ، سعداء كرماء .

وسوف أضيف إلى الأمثلة العالية السابقة مثلا دونها ، ولكن يمكن على أية حال ، أن تجرى عليه المقارنة إلى حد ما ، وسوف يستخدم مثالاً لجميع هذه الحالات . إنه هيرو السيراقوزى الذى أصبح أمير سيراقوزه بعد أن كان فردا عاديا ، دون أية مساعدة من الحظ سوى الفرصة . لأن أهل سيراقوزة ، وقد كانوا مضطهدين ، اختاروه رئيساً لهم ، وارتقى بقدرته من هذا المركز إلى مرتبة الإمارة . و«لم يكن ينقصه لكى يحكم ، وهو مازال فرداً عاديا ، سوى المملكة » ، كما قال عنه الكتاب . ألغى الجندية القديمة ، وأقام أخرى جديدة ، وتخلى عن جميع الأحلاف وعقد غيرها . ولما أصبح له ، على هذا الأساس ، أصدقاء وجنود من اختياره الخاص ، استطاع أن يشيد فوق هذه ، الأسس مطمئنا ، حتى أنه عانى فى الحصول على ولايته عناء كبيرا ، بينما قاسى قليلا فى المحافظة عليها .

الباب السابع

فى الإمارات الجديدة التى استولى عليها بقوات غيرنا وحظه

إن أولئك الذين يرقون من أفراد عاديين ليصبحوا أمراء لمجرد الحظ ، لا يعانون عناء كبيرا فى الصعود ، لكنهم يقاسون كثيرا فى

توطيـد ولايتهم . هم لا يقـابلون فى الطريق إلا الإمـارة أية عقـبات . لأنهم يطيرون فوقها ، ولكن تظهر جميع عقباتهم حينما يعتلون مكانهم. وأمثال هؤلاء هم الذيـن منحوا ولاية إما فى مقابل مـال ، أو بفضل هذا الذى يمنحهـا ، كمـا حـدث للكثيـر فى بلاد الإغريق ، فى مـدن إيونيا Ionia وهلـسبونت Hellespont ، الذين صـنع منهـم داريوس أمــراء للسيطرة على هذه الأمـاكن من أجل سلامتـه ومجده وأمثـال هؤلاء أيضاً أولئك الأباطرة الذين رقوا من مواطنين عاديين إلى السلطان برشوة الجيش . وهؤلاء يعتمدون اعتمادا مطلقاً على حظ أولئك الذين يرفعونهم وإرادتهم الخيرة . وكـلا الأمـرين لا يدوم ولا يثـبت بصورة مـفـرطة . إنهم لا يعـرفـون كيف يحـافظون على ولايـتهم ، كـمـا لا يكونون فى مـوقف يصونونهـا فيـه . فإذا لم يكن الواحد منهم فـردا ذا عبقـرية عظيمـة فلا يحتـمل لذلك الذى عـاش دائماً فـى مركز عـادى أن يعرف كـيف يأمر وينهى . وهم غـير قادرين على المحـافظة على أنفسـهم لأنهم لا يملكون قوات صـديقة لهم وموالـيـة . وفضلا عن ذلـك ، فإن الدول التى ترسى قواعدها سريعاً كجمـيع الأشياء الأخرى ذات البدايات والنمو السريع ، لا تستطيع أن تتجذر بعمق ، تتشعب فى أمـاكن رحبة حتى أن أول عاصفة تهب تدمرها ، إلا إذا كـان للفرد الذى وصل إلى الإمارة – كـما قلنا – تلك العبـقرية العظيمة التى تجـعله قادرا على أن يتخـذ الخطوات العاجلة

لصيانة ما قد رمى به الحظ فى حجره ، ثم يضع تلك الأسس التى يضعها غيره قبل أن يصبحوا أمراء .

وسوف أضرب هنا مثالين قد حضرا فى الذاكرة لهاتين الطريقتين من طرق الوصول إلى الإمارة ، أى بالقدرة أو بحسن الطالع ، وهما مثالا فرنتشسكو سفورتسا ، وقيصر بورجا Cesare Borgia . أصبح فرنتشسكو دوق ميلانو بالوسائل المناسبة وبقدراته ، بعد أن كان مواطناً عادياً ؛ وصان بقليل عناء ما قد حصل عليه بعد صعاب جمة . ومن ناحية أخرى ، حصل قيصر بورجا ، المشهور باسم دوق فالنتين ، على الملك بفضل نفوذ أبيه ، وفقده حين أفل ذلك النفوذ ، وذلك على الرغم من أنه لم يدخر وسعاً فى اتخاذ أية وسيلة أو جهد يقوم به رجل قادر حكيم لكى يوطد نفسه توطيدا راسخاً فى ولاية قد منحتها إياه حظوة غيره وأسلحته ويرجع ذلك إلى أن من لم يرس القواعد فى البناء يستطيع أن يضعها بقدراته العظيمة فيما بعد ، كما قلنا ، على الرغم مما فى ذلك من عناء عظيم لمهندس البناء ، وخطر على البناء . وحينئذ لو نظر المرء بعين الإعتبار إلى الإجراءات التى اتخذها الدوق فسوف يرى أى أسس مكينة قد وضع لسلطانه المقبل ، ولا أعد فحصها غير لازم ، لأنى لا أعلم مبادئ ينسج على منوالها أمير جديد أحسن مما نجد فى أعمال الدوق . وإذا كانت الوسائل التى اتخذها غير ناجحة ، فليس هذا لخطأ له ، ولكن السبب هو الحظ المفرط فى التعاسة ، ولا شئ سواه

حين أراد الإسكندر السادس Alexander VI أن يعلى من شأن ولده الدوق ، كان عليه أن يلاقى صعابا كثيرة جدا عاجلة وآجلة . فأولا ، لم ير سبيلا ليجعل قيصر حاكما لأية ولاية لم تكن ملكا للكنيسة . وعرف أن دوق ميلانو والبنادقة قد لا يوافقون على محاولته أخذ مدن للبابا ، لأن فائنزا وريمينى كانتا حتى ذلك الحين تحت حماية البنادقة . وزيادة على ذلك ، رأى أن قوات إيطاليا العسكرية ، وخاصة تلك التى يستطيع أن يستخدمها ، فى أيدى من يخشون عظمة البابا ، ولذلك لم يستطع الاعتماد عليها ، لأنها كانت جميعاً تحت قيادة الأورزنى Orsini ، وآلكولونا Colonna وأتباعهما . ولذلك كان من الضرورى له أن يجعل الحالة الراهنة تضطرب ، وأن تثير الاضطرابات فى الولايات الإيطالية لكى يضمن السيادة فى جزء منها . وكان هذا الأمر يسيرا ، لأنه وجد البنادقة - مدفوعين بدوافع أخرى - قد استدعوا للفرنسيين إلى دخول إيطاليا ، وهذا ما لم يعارضه فحسب ، بل ويسره بفسخ الزواج الأول للملك لويس . وهكذا دخل الملك إيطاليا بمساعدة البنادقة وموافقة الإسكندر . ولم يكد يصل إلى ميلانو حتى أخذ منه البابا جنودا لحملته فى رومانا التى أمكن فتحها بفضل صيت الملك وشهرته . ولما تم له الاستيلاء عليها على هذا النحو ، وهزيمة الكولونا ، عاقة عن الاحتفاظ بها والاستمرار فى زحفه أمران . أولهما ، قواته التى شك فى ولائها . وثانيهما ، نية فرنسا . وبعبارة أخرى نقول : إنه خشى أن تتخلى عنه

قوات الأورزنى التى استخدمها ، وهى لا تعوقه فحسب عن زيادة التوسع ، بل وقد تأخذ منه ما قد فتح حتى الآن . كما خشى من أن يأتى الملك نفس الأمر . وكانت البينة عنده على هذا بالنسبة لأورزنى ، أنه بعد أن أخذ فائنزا أغار على بولونيا فلاحظ تخلفهم . أما الملك ، فقد فطن إلى نواياه حين استولى على دوقية أوربينو Urbino ، وحمل على توسكانيا ، وأوقفه الملك عن هذه الحملة . ومنذ ذلك الحين عزم الدوق على ألا يعود إلى الاعتماد على أسلحة غير أسلحته ، أو يعول على حظ غير حظه هو . لقد كان أول ما قام به هو إضعاف حزبى الأورزنى والكولونا فى روما ، بأن كسب فى صفه جميع أنصارهما الذين كانوا أعيانا ، وجعلهم أتباعاً له ، بأن أجزل لهم العطاء ، وعينهم فى مراكز ، وولاهم أعمالا ، كل على حسب قدره ، حتى انقطعت صلاتهم بحزبيهم فى بحر شهور قليلة ، والتفوا حول الدوق كل الالتفاف. وبعد ذلك انتظر فرصة تسنح لكى يسحق زعماء الأورزنى ، وكان قد بطش بزعماء الكولونا . وحين سنحت الفرصة استغلها استغلالا مفيدا ، لأن الأورزنى حين رأوا أخيراً أن عظمة الدوق والكنيسة تعنى سقوطهم دعوا إلى عقد ديت diet فى ماجيونى Magione ببيروجينو Perugino . وحينذاك اندلعت ثورة أوربينو ، وحدثت اضطرابات فى رومانا ، وظهرت للدوق أخطار لا حصر لها ، وتغلب عليها جميعاً بمساعدة الفرنسيين . وحين استعاد سمعته ، لجأ إلى الخديعة ، ولم يعد يعتمد على فرنسا ، أو على قوات

أجنبيـة أخرى لكيلا يجازوف بنفـسه بالتحـالف معهم . أخفى أغـراضه جيـدا حتى سـالمه الأورزنى ، ونزع شكوك ممثلهم السـيد باولو Signor Paulo بكل أنواع الحفاوة ؛ فقدم له اللباس ، والأموال ، والخيل ، حتى أغرتهم سذاجتهم بالحضور إلى سنجاجليا Sinigaglia ويقعوا فى يده . لقد وضع الدوق أسسا قويـة جدا لسلطانه ، بأن تخلص نهائيا من هؤلاء الزعمـاء بهذه الصـورة ، وجعل أنصارهم أصـدقاء له ، وأسـتولى على جميع رومانا مع دوقيـة أوربينو ، وكسب ود السكان الذين أخذوا يحسون بمزية حكمه .

ولما كان هذا الدور جديرا بمراعاة الآخـرين ، وحرى بهم أن ينسجوا على منواله ، فلن أترك الحديث فـيه . كان إقليم رومـانا يحكمه ، حين استولى عليه الدوق ، حكام ضعفاء ، وكانوا ينهبون رعيتهم أكثر من أن يحكموها ، ويعملون على فرقتهـم أكثر من العمل على وحدتهم ، حتى أصبحت المقاطعـة فريسة للصوصية والسلب . ولجـميع أنواع الفوضى . ولذلك رأى الدوق أن إقامة حكومة صالحة فيها من الأمور الضرورية حتى يسالموه ويدينوا لحكمه بالطاعة ؛ فـولى عليهم من أجل هذا الغرض رميرو دى أوركو Remiro de Orco . ولقد كـان هذا رجلا قاسيـا وقديرا ، ومنحه الدوق أوسع السلطات ، ونجح رميرو نجاحا عظيما فى تنظيم البلاد وتوحـيدهـا فى زمن قصـيـر . ولما رأى الدوق ، حـينذاك ، أن السلطة المسرفـة غير مناسبـة ، وخشى أن تولد الكراهية فى النفـوس ، أنشأ فى

مركز الولاية دارا مدنية للعدالة تحت رياسة رجل ممتاز ، وعينت فيها كل مدينة محاميها الخاص . ولما علم أن قسوة الأمس قد ولدت فى النفوس قدرا من الكراهية ، قرر أن يظهر للعيان أن كل قسوة لحقت بالناس فيما مضى لم تكن لأوامر أصدرها ، وإنما ترجع إلى ميول وزيره الخشنة ، وذلك حتى يطهر النفوس ويكسبها تماما فى جانبه وحين وجد الفرصة قتل رومير ، وشطر جسده شطرين ، وألقاه ذات صباح وسط ميدان عام فى تشزينا Cesena ، وبجانبه قطعة من الخشب ، وخنجر ملطخ بالدماء ، أذهلت وحشية هذا المنظر الشعب ، وأثارت فى نفس الوقت رضاه ؛ ولكن لنعد من حيث استطردنا .

والآن ، وقد أصبح الدوق قويا ، وفى مأمن من الأخطار الراهنة إلى حد ما ، ومسلحا هو نفسه ، وقضى إلى حد كبير على القوى المجاورة التى قد تؤذيه ، لم يبق عليه الآن ، إذا رغب فى أن يواصل الفتح ، سوى أن يفوز باحترام فرنسا له ؛ لأنه علم أن الملك - الذى كان قد كشف خطأه مؤخرا قد لا يمد إليه يد المساعدة أبدا ، ولذا بدأ يبحث عن أحلاف جديدة ، ويراوغ فرنسا فى مناسبة الحملة التى كان الفرنسيون يقومون بها تجاه نابولى ضد الأسبانيين الذين كانوا يحاصرون جينتا Gaeta . لقد كان يقصد أن يستوثق منهم ، وكان يستطيع أن يوفق بسرعة فى ذلك لو أمد الله فى حياة الإسكندر

كانت هذه هى الإجراءات التى اتخذها الدوق لمواجـهة الحاضر . أما بالنسبة للمستقبل ، فـقد خشى أن يعاديه وريث جديد لولايات الكنيسة ، ولربما سـعى إلى أن يسلب منه مـا قد منحـه إياه الإسكندر ، ولذا أخـذ يعمل على اتقـاء ذلك بأربعة طرق . فأولا ، اسـتأصل شأفة جـميع من يجرى فى عروقهم دم الأسر الحاكمة التى كان قد اغتصب ملكها ، وذلك لكى يجرد البابا من أية فرصة يستغلها ضده. وثانيا ، كسب جميع نبلاء رومـا فى صفـه ليكبح بهم جـماح البـابا . وثالثـا ، لم يأل جهـدا فى السيطرة على مجلس الكرادلة . ورابعاً ، حـصل قبل وفاة البابا على نفوذ كبـير حتى يستطيع بمفـرده أن يصد أول هجوم يشن عليـه . وعند موت الإسكندر كـان الدوق قد حـقق من هذه الأمـور ثلاثة ، وأوشك على أن ينجز الرابع منها ، لأنه دق عنق كثـير ممن استطاع أن تصل إليه يداه من الحكام السابقين، وفر منهم عدد ضئيل جدا؛ وضم إلى صفه نبلاء روما ، وكان له نفوذ عظيم فى مجلس الكرادلة أما بالنسبة للأملاك الجديدة ، فقد اختط لنفسه أن يصبح سيـد توسكانيا ، وقد كان ملك بروجيا Perugia وبيومبينو Piombino ، من مدة وجيزة، وفرض حمايته على بيزا ؛ ولقد أخذها عندما لم يعد يخشى الفرنسـيين (لأن الأسبان قد جردوا الفرنسيين مـن مملكة نابولى بصـورة جعلت كلا الطرفين مـضطرا إلـى أن يخـطب وده) . وبعـد ذلك سلمت لوقـا Lucca وسيـينا مرة واحـدة ؛ بسبب كراهيتهم للفلورنسيين من ناحية ، وخوفا من ناحية أخرى ، لأنها كانت

لا تملك أية موارد ، حتى أنه لو وفق التوفيق الذى قدر له فى نفس السنة التى توفى فيها الإسكندر لفاز الدوق بقوة وشهرة تمكنانه من المحافظة على نفسه دون أن يعتمد على حظ غيره أو قوته ، ولكنه يستطيع أن يركن إلى سلطانه وقدرته فحسب ؛ بيد أن الإسكندر توفى بعد خمس سنوات من امتشاق قيصر بورجا حسامه لأول مرة . ولم يبق للدوق سوى ولاية رومانا وطيدة الأركان ، والمشروعات الأخرى معلقة فى الفضاء بين جيشين قويين جدا ومعاديين ، وهو يشكو داء عضالا . ولكن كانت للدوق تلك الحيوية والقدرة ، وعرف جيدا كيف يكسب تأييد الرجال أو كيف يقهرهم ، وكانت قواعد ملكه التى قد وضعها فى مدة وجيزة قوية مكينة جدا ، حتى أنه لو لم يكن هذان الجيشان أمامه ، أو كان فى صحة جيدة ، لأمكنه أن يتغلب على كافة الصعاب الأخرى . ونشاهد قوة الأسس التى وضعها من أن رومانا انتظرته بالفعل لما يزيد عن شهر . ومع أنه كان فى روما الحى الميت ، إلا أن مركزه ظل سليما . وعلى الرغم من أن الباجليونى Baglioni ، والفيتللى Vitelli ، والأورزنى دخلوا روما ، فإنهم لم يجدوا فيها أتباعا ضده . لقد كان فى مقدور الدوق ، على الأقل أن يحول بين كرسى البابوية ومن لا يرغب هو فيه ، وذلك إذا لم يكن يستطع أن ينصب فيه من يشاء ؛ وربما تيسرت له كل الأمور لو كان سليما معافى حين وفاة الإسكندر . لقد أخبرنى يوم انتخاب يوليوس الثانى بأنه قد فكر فى كل ما عساه أن يحدث عند وفاة

أبيه ، واحتـاط لجميع الأمور ، غيـر شئ واحد لم يدر بخلده أبدا ، إلا وهو أن يكون هو ذاته قريباً من حافة القبر عند وفاة أبيه

ولذلك حين استعرض جميع أعمال الدوق لا أجد مايلام عليه ، بل على العكس ، أحس بأننى ملزم بأن أرفعه ، كما فعلت ، مثالا ليحتذى ، كل من وصل إلى الحكم بحظ غيره أو بأسلحته . ولم يكن فى إمكان الدوق صاحب الشجاعـة الفائقة والطموح الرفيع أن يفعل غـير ما فعل ، وما خابت خططه إلا لمرضه ، وقصـر حياة الإسكندر . ولذا فإن الواجب على كل من يعد من ضـرورات إمارته الجديدة تأمين نفســه ضد الأعداء ، وكسب الأصدقاء ، والغلبة بالقوة أو بالخديعة ، وأن يكون محبوباً ومهيباً من الشـعب ، يسـيـر خلفه جـنوده ويجلونه ، وأن يسـحق كل من فى مـقـدورهم إيـذاءه ومن قـد يؤذونه ، وأن يتناول الـقـديم من الأوضـاع بالتجديد ، وأن يكون قاسياً وشفيـقاً ، نبيل الخصال ، رحب التفكير ، وأن يلغى الجندية القديمة ، وينشئ جندية جديدة ، ويبقى بينه وبين الملوك والأمراء على الصداقة بطريقة تفرحهم إذا نفعوه ، ويخافونه إذا أضروه - مثل هذا الأمير لا يستطيع أن يجد مـثالا يحتذى به أفضل من أعمال هذا الرجل . بيـد أن اللوم الوحـيد الـذى يوجه إلى الدوق ، هـو انتخـاب يوليوس الثانـى للبابوية . لقد أساء الاختـيار ، وكان فى مقـدوره ، كما قيل ، أن يعوق انتـخاب أى كردينال للبابوية ، مـادام لم يتم له انتخاب البابا الذى يوافقه هو وكان يجب عليه ألا يسمح أبداً بانتخاب أى كردينال من الكرادلة قـد أساء هو إليه ، أو مـن قد يخشـاه الدوق حين يرقى هذا

إلى كرسى البابوية، لأن الكراهية أو الخوف يدفع الرجال إلى الأذى. إن أولئك الذين قد أساء إليهم هم : القديس بطرس أدفنكولا San Pietro ad Vincula، والقديس جورج San Giorgio ، وآسكانيو Ascanio وغيرهم وكان غير هؤلاء جميعاً سيخشونه لو انتخبوا للبابوية إلا روهان Rohan والكرادلة الأسبانيون . فهؤلاء يخشونه لما بينهم وبينه من التزامات وصلة، وروهان لنفوذه العظيم ؛ فلقد كان على قرابة بملك فرنسا ولهذه الأسباب كان على الدوق أن يوجد ، أولا وقبل كل شئ ، فى الكرسى البابوى أحد الأسبانيين ، فلو لم يكن يقدر كان عليه حينئذ أن يوافق على تعيين روهان لا القديس بطرس . إن كان من يظن أن المنفعة الحديثة تمحو أثر الإساءة القديمة من نفوس العظماء يخطيء خطأ كبيرا . ولهذا أخطأ الدوق فى هذا الاختيار ، وكان هذا سبب هلاكه فى النهاية .

الباب الثامن
فيمن وصل إلى الإمارة بالجريمة

وحيث أنه لا يزال هناك طريقتان للوصول إلى الإمارة لا صلة بين أى منها وبين الحظ أو القدرة بتاتاً ، فيجب ألا نغض الطرف عنهما ، مع أنه يمكن مناقشة طريقة منهما بصورة أكثر تفصيلا لو كنا نعالج موضوع

الجمهوريات . وهاتان الطريقتان هما أن يصل الفرد إلى الإمارة بوسائل خاصة خبيثة أو شريرة ، أو حينما يصبح مواطن عادى أمير بلده بموافقة أقرانه المواطنين. وسوف أضرب عند الحديث عن الطريقة الأولى مثالين ، أحدهما قديم ، والآخر حديث ، دون الدخول أبعد من ذلك فى مزايا هذه الطريقة ، لأن أرى فى المثالين الكفاية لمن يضطر إلى محاكاتهما .

ارتفع أجاثوكليس Agathocles الصقلى إلى عرش صقلية ، لا من بين العامة فحسب ، بل ومن أحقر مكان وأوضعه . كان أبوه صانع فخار ؛ فعاش أجاتوكليس عيشة تميزت فى جميع مراحل حياته بأقصى صور الشر ، إلا أن شره كان مصحوبا بتلك الحيوية فى الذكاء والبدن حتى أنه حين التحق بالجندية تقلب فى رتبها إلى أن وصل إلى رتبة البريتور Praetor فى سيراقوزة . وحين عين فيها ، وعزم على أن يصبح أميرا ، ويحافظ بالشدة وبدون معونة الآخرين على ما قد أناله إياه الدستور كاشف هملقار القرطاجنى Hamilcar بخططه ، وكان هذا يحارب بجيوشه فى صقلية ، ودعا ذات صباح الشعب والسناتو فى سيراقوزة ، كما لو كان عليهم أن يتداولوا فى أمور هامة للجمهورية . وعندما أعطيت إشارة خاصة ذبح جنده جميع أعضاء السناتو وأغنى أغنياء المدينة . وبعد المذبحة احتلها ، وقبض على زمام الحكم دون أية محاولة مدنية . وعلى الرغم من أن القرطاجنيين هزموه مرتين ، وحاصروه

حصارا تاما ، إلا أنه استطاع لا أن يدافع عن المدينة فحسب ، بل وأن يترك قسما من قواته للدفاع عنها ، ويغزو أفريقيا بالقسم الآخر . ثم يفك حصار سيراقوزة فى وقت قصير ، ويضيق الخناق على القرطاجنيين حتى اضطروا إلى الاتفاق معه ، ويظلوا قانعين بملك أفريقيا ويتخلوا عن صقلية لأجاتوكليس . وعلى ذلك فإن كل من ينظر إلى أعمال هذا الرجل وخصاله فإنه يرى قليلا منها يمكن أن ينسب إلى الحظ ، إذا وجدت بينها أمور من ذلك ؛ فوصوله إلى الإمارة ، كما أوضحنا ، لا يعزى إلى مساعدة غيره له ، وإنما إلى تقلبه فى رتب الجندية ، وتقدمه فيها ، وتكبده آلاف العقبات والأخطار ، ثم محافظته عليها فيما بعد بوسائل كثيرة جدا باسلة وخطرة . فلا يمكننا أن ندخل فى باب القدرة ذبح أقران المرء من المواطنين ، أو الغدر بالأصدقاء ، أو عدم الوفاء ، أو التجرد من الشفقة والتدين . وقد يصل الإنسان بهذه الوسائل إلى السيادة بالفعل ، بيد أنها لا تكسبه مجداً . لأننا لو نظرنا إلى قدرة أجاتوكليس على مواجهة الأخطار دون وجل والغلبة عليها ، وعظمة روحه فى تحمل العقبات والتغلب عليها ، فإن المرء لا يرى سبباً لكى يضعه فى مرتبة دون مراتب أعظم الرؤساء شهرة . ومع ذلك فإن قسوته البربرية ، وعدم رقة شمائله ، وألوان وحشيته التى لا تحصى ، لا تجيز جميعاً لنا بأن ندعوه بين أشهر الرجال . ونحن لا نستطيع أن ننسب إلى الحظ أو القدرة ما قد أنجزه بدون أى منهما .

وترك أليفروتو دا فرمو Oliverotto da Fermo فى أيامنا ، وفى عهد الإسكندر السادس ، صبياً صغيرا يتيما ، يكفله خاله جيوفانى فوجليانى Giovanni Fogliani الذى نشأ وألحقه فى شبابه المبكر بالجندية تحت قيادة باولو فيتللى Paolo Vitelli لكى ينال مركزاً عسكريا ممتازا وقد تدرب فى هذه المدرسة غير الهينة . وعند موت باولو حارب أليفروتو تحت قيادة شقيقه فيتللوتسو Vitellozzo حتى أصبح فى زمن وجيز قائدا من قواد قواته ، وذلك لذكائه العظيم ، ونشاطه العقلى والبدنى . ولكنه حين عد البقاء تحت إمره غيره من شأن العبيد ، عقد العزم على احتلال فرمو بمساعدة فيتللى وبعض أبناء فرمو الذين فضلوا عبودية وطنهم على حريته . ولذلك كتب إلى خاله جيوفانى فوجليانى عن رغبته فى الحضور إلى فرمو لرؤياه وزيارة وطنه لطول غيابه عنه ، وهو يستطيع ، فى نفس الوقت أن يفتش ، على قدر الإمكان ، أملاكه . ولما كان أليفروتو قد جد ليكسب فحسب الشرف ، فلكى يعلم أبناء وطنه أنه لم يضيع وقته سدى فهو يرغب فى أن يحضر إلى فرمو مكرما يرافقه مائة من الفرسان والأصدقاء والأتباع ، ورجا خاله قائلا : إن من دواعى سروره أن يصدر جيوفانى أوامره لكى يستقبله المواطنون فى فرمو بحفاوة ، وفى هذا الأمر أيضا تكريم لخاله فهو أستاذه . ولم يقصر جيوفانى فى القيام بأية حفاوة لائقة بابن أخته ، وأصدر أوامره بأن يستقبلوه بالتكريم ، وأنزله فى دوره الخاصة . ثم انتظر أليفروتو بضعة

أيام ليهيئ جميع ما يلزم لخططه الأثيمة ، ودعا جيوفانى فوجليانى وجميع وجوه فرمو إلى مأدبة كبيرة . وبعد تناول الطعام والترفيه المألوف فى مثل هذه الولائم تطرق أليفروتو فى الحديث بدهاء إلى موضـوعات معينة هامة للمناقشة ، بأن تحدث عن عظمة البـابا الإسكندر ، وعظمة ولده قيصر ، وأعمالهما ، وعندما أخـذ جيوفانى والآخرون يردون على الحديث نهض فجـأة قائلا بأن الكلام فى هذه الأمور ينبـغى أن يكون فى مكان خاص ، وانسحب إلى غرفة تبعه إليهـا جيوفانى وجميع المواطنين الآخرين . ولم يكادوا يجلسون حتى هجـم الجند عليهم من كمينهم ، وذبحوا جـيوفانى وجميـع الآخرين . وبعد هذه المذبحة امـتطى أليفروتو جواده ، وحـاصر شيخ الـقضاة فى قـصره حـتى اضطر الشعب هلعـا إلى طاعتـه وتكوين حكومة جعل نفـسه أميرها . ولما كان قـد قضى على كل من قد يؤذيه لو لم يرض عنه ، قوى مركزه بأنظمة جديدة عسكرية ومدنية حتى ، أنه لم يعش هو نفســه فى مدينة فـرمو فى سلام فـحسب ، بل وأصبح يخـشاه جميع جـيرانه أيضا ، وذلك فى بحر العام الذى ولى فيـه الإمارة . لقد كان من الصعب أن ينقلب عهده ، شأنه فى ذلك شأن أجاتوكليس ، لو لم يدع قيصـر بورجا يخدعه عندما ألقى القـبض على الأورزنى والفيتللى فى سنجاجليا ، كـما سبقت الإشارة منذ برهة قصـيرة ، حيث أخذه هو أيضا وشنقـه مع فيتللوتـــو الذى كان أستـاذا له فى القدرة والوحشـية ، وذلك بعد سنة واحدة من اغتياله لخاله .

وقد يعجب البعض : كيف استطاع أجـاتوكليس وغيره ممن يشبهون له ، مع ما اقترفوا من ضروب لا تحـصى للقدرة والقسوة ، أن تتوفر لهم السلامـة سنين عديدة فـى بلادهم ، وأن يحمـوا أنفسهم مـن الأعداء فى الخارج ، ودون أن تتآمـر عليهم رعيتهم بتاتاً ، على الرغم مـن أن كثيراً غيرهم لم يقدروا البتة على أن يصونوا مركزهم فى زمن السلم ، وهذا لو أننا أغفلنا ذكر أيام الحرب غير المأمونة ؟ أعتقد أن الأمر يرجع إلى كيفية استغلال الشدة استغلالا صالحاً أو سيئا ؛ فالشدة الصالحة (لو جاز لنا أن نصف الشر بالخـير) هى التى قد تقال عن تلك الحـالات التى تمارس مرة واحدة من أجل سلامة الأمـير ، ويستغنى عنها فيمـا بعد بوسائل أخرى تفيد الرعية على قدر الإمكان .

واستخدام الشـدة استخداما سيـئا يكون فى تلك الحالات التى ، مع قلتها ، تزداد مع الزمن ولا تنقص . إن أولئك الذين ينهجون على النهج الأول قد يعالجون حـالتهم بإجراءات معينة ، سواء بـعون الله أم بمساعدة من البشر ، كما فعل أجاتوكليس . أما غـير هؤلاء فمن المستحيل عليهم أن يصونوا أنفسهم .

ومن هنا علينا أن نلاحظ أنه ينبغى للفـاتح الذى يستولى على ولاية جديدة أن يهيئ الأمـر لكى يقترف ضروب قسوته مـرة واحدة ، حتى لا يضطر إلى أن يمارسها كل يوم ، وذلك لكى يسـتطيع أن يطمئن الشعب إليه ، وحتى يكسبه بجانبه بما ينفعه به ، لا بالتغييرات الجديدة التى يقوم

بها . إن كل من يفعل غـير ذلك ، جنبا أو عملا بمشورة غـير صالحة ، يضطر دائمـا إلى أن يقف والخنجر فى يده ، ولا يسـتطيع أن يركن إلى رعاياه بتاتا، لأنهم لا يستطيعون أن يطمئنوا إليه بسبب أذاه الذى يتجدد ؛ لأن الإساءة يجب أن تكون جميعها دفعة واحدة، حتى أنه كلما قل حدوثها قل ضررها. أمـا المنافع فينبغى أن تعـطى قليلا قليلا حـتى يمكن بصورة أفضل أن ينعموا بها . وعلى الأمير ، قبل كل شئ ، أن يعيش مع شعبه على وتيرة لا تغيرها الحوادث، سواء أكان الحظ مواتياً ، أم قلب له الدهر ظهر المحن ، لأنك لا تكون حين تنبجس الضرورة فى الأوقـات العصيبة فى وقت يناسب اسـتخدام الشـدة ، وما تفـعل من خير لا يعـود عليك بفائدة ، لأنه يؤخذ على أنه اضطرار ؛ ولن تجنى منه أية فائدة كانت .

الباب التاسع

فى الإمارات المدنية

ولكننا نصل الآن إلى الحـالة التى يصبح فيـها مـواطن أميرا برغـبة أقرانه المواطنين ، ولـيس بالجريمة أو العنف الذى لا يطاق ؛ وقـد تسمى هذه الحالة بالإمارة المدنية . وبلوغ هذه الـولاية لا يتوقف بتاتاً على الجدارة أو الحظ ، ولكنه يعتمد بالأحرى على المكر يعينه الحظ ، لأن المرء يبلغها

برغبة الشعب ، أو بإرادة الطبقة الأرستقراطية . ففى كل مدينة توجد هاتان الجماعتان المتعارضتان ؛ والتعارض ناجم عن رغبة الشعب فى تحاشى اعتساف الطبقة الأرستقراطية ، ورغبة هذه فى قيادة الشعب والبطش به . ويترتب على هاتين المصلحتين المتعارضتين فى المدينة إحدى نتائج ثلاث : إما حكم مطلق ، أو حكم حر ، أو فوضى . ويصنع الشعب أو الطبقة الأرستقراطية الحكومة الأولى ؛ والأمر يتوقف على الفرص النسبية التى تواتى الطرفين . فالنبلاء حين يرون أنهم عاجزون عن مقاومة الشعب يتحدون ويختارون واحدا من بينهم ويجعلون منه أميرا ، ليتسنى لهم فى ظل سلطانه أن يحققوا مشروعاتهم الخاصة . والشعب ، من ناحية أخرى ، عندما لا يستطيع مقاومة النبلاء يسعى إلى أن يرفع من بينه أميرا يصنعه لكى يحتمى فى ظل سلطته . ومن يصبح أميرا بمساعدة النبلاء يتكبد فى المحافظة على سلطانه مشقة أعظم من مشقة من رفعه الشعب إلى الإمارة ؛ فحوله كثيرون يعدون أنفسهم أندادا له ، ومن هنا فهو لا يستطيع أن يوجه أو يقود كما يروق له . أما الذى قد ارتفع إلى مرتبة القيادة بعون من الشعب فيجد نفسه فريدا ، ويلفى الجميع عدا القليل جدا مستعدا لطاعته . وفضلا عن ذلك ، فإن المعاملة بالقسطاس ، ومن غير أن نضر الآخرين ، يستحيل معها إرضاء النبلاء ، بينما إرضاء العامة بهذه الطريقة أمر هين جداً ، لأن هدف الشعب أشرف من غرض النبلاء ، فهو لا يبغى سوى تجنب البطش ، فى حين أن

النبلاء يرغبون فى التعسف . ويجب أن نضيف إلى ما سبق أن الأمير لا يستطيع أن يستوثق من شعب يعاديه ، وذلك لكثرة عدده . ولكن يتسنى له ذلك مع مناوأة الأشراف له ، فهم قلة . إن شر ما يتوقعه الأمير من الشعب الذى يناوئه هو أن يتخلى عنه ، ولكن ما يخشاه من النبلاء الذين يعادونه هو مقاومتهم الناشطة له ، فضلا عن تخليهم عنه . ولما كانوا أبعد نظرا من الشعب ، وأشد مكرا ، فهم دائما يخلصون أنفسهم وينضمون إلى من يتوقعون له الغلبة ، وذلك فى الوقت المناسب . والأمير مضطر ، زيادة على ذلك ، إلى أن يعيش دائما مع الشعب نفسه ، بينما يستطيع أن يعيش بدون الطبقة الأرستقراطية عينها ؛ فهو الذى فى وسعه أن يوجدها ويقضى عليها فى أى وقت ، وأن يحسن مركزها أو يجردهم منه ، وذلك كما يحلو له .

ولكى ألقى على هذا الجانب من حجتى ضوءا أشد أقول : يجب أن يكون اعتبارنا للنبلاء بأسلوبين مختلفين ، أى إما أن يحكموا حكما يجعلهم يتوفرون على الاعتماد على حظك ، أو غير ذلك . وأولئك الذين يرتبطون بك هذا الارتباط ، ولا يعرفون الجشع ، يجب أن تكرمهم ، ومحبتهم واجبة . وأولئك الذين يقفون بعيدا عنك يجب النظر إليهم بطريقتين ، فهم إما أنهم يفعلون ذلك إحجاما وجبنا ، وفى هذه الحالة يجب عليك أن تستفيد بهم ، وخاصة أهل الرأى منهم ، حتى أنهم قد يشرفونك فى السراء ، وليس لك أن تخشاهم فى الضراء . ولكن حين لا يترابطون معك ، وذلك لغرض معين ، ولغايات

طموحة ، فهذه أمارة على أنهم يفكرون فى أنفسهم أكثر مما يفكرون فيك. ولذا وجب على الأمير أن يحترس من أمثال هؤلاء الرجال ، وينظر إليهم كما لو كانوا أعداء غير ظاهرين سوف يساعدون على هدمه فى وقت الشدة .

ولهذا ينبغى للأمير الذى أمره الشعب عليه أن يصون محبتهم له ، ومهما يكن من شئ . وسوف يجد هذا أمرا سهلا ؛ لأن الشعب لا يلتمس شيئا سوى ألا يُسام الظلم . أما المرء الذى أصبح أميرا بمساعدة النبلاء وضد رغبة الشعب ، فيجب عليه أن يسعى أولاً إلى نيل رضاه ، وهذا ما سوف يكون سهلا لو أنه دافع عن الشعب . ولما كان البشر الذين تصيبهم نعم من يتوقعون منه الشر يذكرون هذا المنعم ذكراً أعظم ، فكذلك الشعب يكون أسرع إلى الميل نحوه مما لو كان قد أصبح أميرا بمساعدتهم له . ويستطيع الأمير أن يكسب رضا الشعب بطرق شتى تختلف باختلاف الظروف ، ولا يمكن أن نقدم لها أية قاعدة خاصة بها ، ولذا فلن أتحدث عنها ، ولن أقول سوى أنه يتحتم عليه أن يكسب صداقة الشعب ، وإلا فلن يجد ملاذا له حين يدق ناقوس الخطر .

صمد نابيس أمير إسبرطة لحصار بلاد اليونان جميعها وجيش رومانى مظفر ، ودافع عن وطنه ضدهم ، وصان ولايته . وحين ظهر الخطر اكتفى بأن يستوثق من فئة قليلة ؛ وما كان يكفيه ذلك لو كان الشعب يناوئه . ولا يذكرن أحد الحكمةِ الدارجة التى تقول : «من يبنى

على الشعب يبنى على الطين » ، ليعارض بها رأيى فى هذا الصدد ، لأن تلك الحكمة تصدق حينما يركن فـرد عادى إلى الناس ويقنع نفسه بأنهم سيخلصونه إذا بطش به الأعداء أو القـضاة . وفى مثل هذه الحالة ، غالبا ما يجد المرء نفسه مخدوعا، كما حدث فى روما لآل جراكى Gracchi ، وفي فلورنسا لجورجو سكالى Georgio Scali . ولكن الشعب لا يخدع أميرا يدعم ولايته بهذه الأسس - أمير شجاع باسـل ، لا ينخلع قلبه عند الشدائد ، ولا يتـوانى فى إعـداد العدد الأخرى ، ويسـتطيع أن يستنهض بقدرته وبوسائله الخـاصة كتلة الشعب ؛ ومثل هذا الأميـر سوف يجد أنه قد أحسن إرساء قواعد ولايته .

ويحدق الخطر عادة بهذه الإمارات حين ينقلب الأمير من حاكم مدنى إلى حاكم مطلق ؛ لأن هؤلاء الحكام المطلقين إمـا أنهم هم أنفسهم الذين يقـودون ، أو أنهم يقـودون بوساطـة ولاة لهم ، ومركـزهم فى الحـالة الأخيرة أشـد ضعفا وخطرا مـنه فى الحالة الأولى ؛ لأنهم يكونون تحت رحمة من قد عينوهم ولاة ، وهؤلاء يستطيعون أن يجردوهم من ملكهم ، سواء بالـعمل ضدهم ، أم بـالخروج على طاعـتهم ، وخاصـة فى وقت الشدة . وفى مثل هذه الأخطار لا يكون الوقت مناسبا لكى يفرض الأمير سلطانه المطلق فرضا ، لأن المواطنين والرعايا لن يكونوا مستعدين لإطاعة أوامره عند هذه الطوارئ ، فهم قد ألفوا تلقى الأوامر من الولاة . وسوف يحتاج الأمير دائما ، فى الظروف العصـيبة ، إلى رجال يستطيع أن يُعول

عليهم . ومثل هذا الأمير لا يمكنه أن يركن إلى ما يراه فى أوقات الهدوء والسكينة ، عندمـا يكون المواطنون فى حاجة إلى الإمـارة ، لأن كل فرد يبذل الوعد حينئذ بكثرة ، ويكون مستـعداً لافتداء الأمير بحياته ، فالموت بعيد . ولكن فى ساعة الشـدة حين تحتاج الدولة إلى المواطنين ، لن يجد منهم وقتـئذ إلا القليل . وإنها لتجـربة شديدة الخطر ، ولا يمكن أن تقع إلا مرة واحدة . .

ولذا يجب على الأمير العاقل أن يبحث عن وسائل يكون رعاياه بها فى حاجـة إلى حكومتـه دائما ، وفى كل ظـرف ممكن ، وحينئـذ سوف يكونون على الدوام أوفياء له .

الباب العاشر
كيف يجب قياس قوة كافة الإمارات

وثمـة نقطة أخرى من الضـرورى أن ننظر إليـها ونحن نبـحث فى صفات هذه الإمارات ، ألا وهى : هل للأمير مثل هذه الولاية التى تجعله قادراً عـلى أن يصون نفـسه بمفـرده عند الحاجـة ، أو هو فى حاجـة إلى حماية غيره دائماً ؟ ولكى أوضح هذه النقطة توضيحاً أفضل أقول : إننى أعتبر أولئك الذين يستطيعون صـيانة أنفسهم بمفردهم هم من فى وسعهم

آن يجندوا جيشاً كافياً لوفرة المال والرجال ، وألا يقهرهم أى مغير عليهم ؛ وأعد الذين فى حاجة إلى غيرهم دائماً هم أولئك الذين لايقدرون على أن ينازلوا أعداءهم فى الميدان ، ولكنهم يضطرون إلى الانسحاب داخل مدنهم ويدافعون . لقد ناقشنا الحالة الأولى منذ وقت قصير ، وسوف نتكلم عنها فيما بعد ، حين تسنح الفرصة . وفى الحالة الثانية ، ليس ثمة قول سوى أن نستنهض هذا الأمير لتحصين مدينته تحصيناً منيعاً ، واتخذ لسياسة رعاياه الإجراءات التى رسمناها وسوف نعيد ذكرها فيما بعد يهاجم بإحجام شديد ، لأن الناس يعافون دائماً المشروعات التى تنبئهم بمصاعبها - ولا يمكن أبداً أن تبدو مهاجمة أمير له مدينة منيعة ، ولا يناوئه شعبه ، أمراً هنياً .

إن المدن الجرمانية حرة ، ولا يحيط بها سوى إقليم صغير ، وتدين بالولاء للإمبراطور بمحض إرادتها ، وهى لا تخشاه أو تخشى قوة من القوى الأخرى حولها . وهى محصنة تحصيناً يجعل كل طامع فيها بعد إخضاعها مهمة شاقة وصعبة المراس ؛ فلها الخنادق اللازمة ، والحصون الضرورية ، والمدفعية الكافية ، وتحتفظ دائما فى مخازنها العامة بما يسد حاجتها عاماً كاملا من الغذاء والشراب والوقود ، وبالإضافة إلى ذلك ، فإن لديها الوسائل الكافية لأن تقدم للطبقات الدنيا العمل لسنة كاملة فى هذه الأعمال التى تكون عصب المدينة وحياتها ، وفى الصناعات التى تعيش منها الطبقات الفقيرة ، وذلك لكى تحتفظ بالطبقات الدنيا راضية ،

ودون خسارة تصيب الثروة العامة . ومازالت المدن الجرمانية تمجد التدريب العسكرى وترفع من شأنه ، وتنفذ لوائح عديدة للمحافظة عليه .

ولذا لا يمكن أن يغير أحد على أمير لـه مدينة حصينة . ويحبه الشعب . ولو فرض أن حدث ذلك فإن المعتدى سيضطر إلى التقهقر كسيف البال ؛ لأن أموراً كثيرة جداً فى هذا العالم تتغير ، ومن هنا يكاد أن يستحيل على أى إنسان أن يستمر عبثاً فى حصار مدينة لمدة عام . وعلى أولئك الذين يحاجوننى بأن الشعب لـن يطيق صبراً حين يرى العدو خارج المدينة وقد أضرم النيران فى أملاكه الخاصة وأحرقها ، وأن الحصار الطويل والمصالح الخاصة ستجعله ينسى أميره ، أجيب : إن الأمير القوى والشجاع يتغلب دائماً على تلـك المصاعب ، تارة بأن يفعم القلوب بأمل الخلاص القريب منها ، وأخرى بأن يثير فيها الخوف من قسوة العدو ، وثالثة بأن يستوثق بحذق من أولئك الذين يبدون له أصحاب جرأة مفرطة . وفضلا عما تقدم ، فإن العدو بطبيعة الحال يشعل النيران فى البلاد فى أول وصوله وفى الوقت الذى لا تزال فيه النفوس ذات حمية ، وتتطلع إلى الدفاع عن ذواتها ، ولذا تظل مخاوف الأمير قليلة . لأنه بعد مرور فترة من الزمن ، وعندما تكون الحمية قد فترت ، والدمار قد وقع ، وابتلينا بالشر ، وليس ثمة علاج ، فحينئذ تصبح النفوس أكثر استعداداً للاتحاد مع أميرها ، لأنه يبدو لهم مدينا إليهم بالمعروف - فدورهم قد أحترقت ، وأملاكهم قد خربت ، فى سبيل الدفاع عنه .

إن من طبيعة الإنسان أن النعمة التى ينعم بها على غيره تربطه به شأن تلك التى يأخذها منه . وبناء عليه فإذا نظر الأمير الحكيم إلى كافة الأمور بعين الاعتبار الصحيح فلن يصعب عليه أن يجعل روح مواطنيه عالية ، عند بدء الحصار ، وفى إبانه ، لو كان يملك المؤن والوسائل للدفاع عن نفسه .

الباب الحادى عشر
فى الإمارات الكنسية

ولم يعد الآن سوى الحديث عن الإمارات الكنسية التى تكون جميع مصاعبها قبل الاستيلاء عليها . وهى تكتسب إمار بالقدرة أو بالحظ ، ولكن المحافظة عليها لا ترجع إلى أى منهما ، لأن التقاليد الدينية القديمة تبقى عليها ، ولهذه التقاليد من القوة والخاصية ما يبقى على سلطان أمرائها مهما كان شكل سلوكهم ، وصورة حياتهم . إن هؤلاء الأمراء هم وحدهم الذين يملكون إمارات دون أن يدافعوا عنها ، ولهم رعايا من غير أن يحكموهم ، وإماراتهم لا تؤخذ منهم ، مع أنها غير محمية ، ورعاياها لا يتبرمون منها مع أنهم غير محكومين ، كما لا يخطر ببالهم ولا يستطيعون أن ينسلخوا عنها ؛ ولذلك فهذه هى الإمارات الوحيدة السعيدة الآمنة . ولكن لما كانت علل عليا تصونها وترفعها ، ولا يستطيع

العقل البشرى أن يرقى إليها ، فسوف لا أقرب الحديث فيها ، لأنه رجم بالظن وحماقة . ومع ذلك قد يوجه إلى هذا السؤال : كيف حدث أن نالت الكنيسة هذه السلطة الزمنية الكبيرة ، فى حين أنه كانت القوى الإيطالية - قبل الإسكندر السادس ، وليس القوى منها حقاً فحسب ، بل وجميع السادة والنبلاء ، حتى من لا أهمية له - لا تقدر سلطتها الزمنية سوى تقدير تافه ، بينما يرهبها الآن ملك لفرنسا ، وكانت تستطيع أن تطرده من إيطاليا ، وأن تهدم البنادقة أيضا ؟ ولهذا السبب ، ولو أن هذا معروف جيداً ، فإنى لا أعتبر ذكره أمراً غير لازم .

كانت هذه البلاد ، قبل أن يدخل شارك ملك فرنسا إيطاليا ، تحت حكم البابا ، والبنادقة ، وملك نابولى ، ودوق ميلانو ، والفلورنسيين . وكان على هذه القوى أن تجعل نصب أعينها هدفين رئيسيين . الأول ، ألا يدخل أجنبى إيطاليا غازيا . والثانى ، ألا توسع حكومة من الحكومات الراهنة أملاكها . وكان البابا والبنادقة من أوائل أولئك الذين يجب الوقوف لهم بالمرصاد . وكان الأمر يتطلب محالفة الآخرين جميعاً لنوقف البنادقة ، كما فى مسألة الدفاع عن فرارا . ولكبح جماح البابا كان الأمر يستدعى استخدام البارونات الرومانيين ؛ وهؤلاء كانوا ينقسمون إلى جزبين : الأوررنى Orsini ، والكولونا Colona . ولما كان ثمة قتال مستمر بينهم فقد كانوا دائماً على أهبة للحرب ، تحت ناظرى البابا ، فأضعفوا البابوية وجعلوها غير وطيدة . ومع أنه كان يظهر من حين لآخر بين البابوات حازم مثل سكستس Sixtus ، بيد أنه لم يتمكن من

التخلص من هذه المتاعب ، سواء بحظه أو بقدرته . لقد كان السبب قصر حياتهم . ففى بحر عشرة أعوام ، وهى قاعدة لمتوسط حياة البابا ، وجد صعوبة عظيمة فى قمع ولو حزب واحد من الحزبين . ولو فرضنا ، مثلا، أن أحد البابوات أوشك على القضاء على الكولونا ، فإن غيره يخلفه ويعادى الأورزنى ، فينجم عن ذلك أن ينهض الكولونا من جديد ، ولا يجد البابا الفرصة للقضاء عليهم .

هذه هى العلة فى أن سلطان البابوية الزمنى فى إيطاليا لم يكن إلا موضع احترام ضئيل . ثم قام الإسكندر السادس ، الذى جعلنا نشهد دون جميع من سبقوه قاطبة ، كيف يستطيع البابا أن يسود بالمال والرجال معا . لقد قام بجميع الأعمال التى قد وصفتها من قبل حين الكلام عن أعمال الدوق عندما أتخذ من دوق ڤالنتين آلة له ، وأنتهز فرصة الغزو الفرنسى . وعلى الرغم من أن عظمة الكنيسة لم تكن هدفه ، بل أبهة الدوق ، إلا أن عظمة الكنيسة نتجت عما قام به ؛ فقد أصبحت بعد وفاة الدوق وريثة لما قدمت يداه . ثم جاء البابا يوليوس الذى ألفى الكنيسة قوية تملك جميع رومانا ، والبارونات الرومانيين وقد كسرت شوكتهم ، والأحزاب وقد دمرتها شدة الإسكندر . كما وجد الطريق مفتوحا لكى يجمع الثروة بطرق لم يعرفها أحد قبل عهد الإسكندر . ولم يقف البابا يوليوس عند حد اتخاذ هذه الأساليب فحسب ، ولكن تناولها بالزيادة أيضا . فصمم على أن يكسب بولونيا ، ويقمع البنادقة ، ويطرد الفرنسيين من إيطاليا . وقد وفق فى جميع هذه الحملات . إنه يستحق

ثناء أكثر من غيره ، لأنه قـام بكل ما يزيد من سلطان الكنيسة الزمنى ، لا سلطان أى فرد خـاص ، وأبقى أيضا على حـزبى الأورزنى والكولونا فى الحالة التى وجـدهما عليها . ومع أنه كان بين صـفوفهمـا زعماء فى مقـدورهم أن يقوموا بتـغيير الأوضـاع ، فثمـة أمران كانا يجـعلانهم لا يتحركون . أولهـما ، قوة الكنيسة التى هلعوا منهـا . وثانيهما ، أنه لم يكن لهم بالفـعل كـرادلة يخـصونـهم ، وهؤلاء أصل الاضطرابات بين صفوفـهم . لأن هذه الأحزاب لا تستـقر أبدا حينما يكون لهـا كرادلة ، فهؤلاء يثيرون الأحزاب فى داخل روما وخارجها معا ، ويضطر البارونات إلى حمايتهم . وهكذا تنشـأ بين البارونات الفتن ، وتقوم الاضطرابات ، نتيجة لمطامع الأسـاقفة . ولذا فقد وجد قداسة البـابا ليو العاشر Leo X البابوية ذات قوة عظيمـة جدا ، ومن هنا يزكو الأمل فى أنه سوف يزيدها عظمة وجلالا بطـيبته وفضـائله الأخرى التى لا تعد ، إذا كان غـيره قد جعلها عظيمة بقوة السلاح .

الباب الثانى عشر
فى الأنواع المختلفة للجندية وفى الجنود المأجورين

والآن ، وقد ناقشت مناقشة تامـة خصائص هذه الإمارات التى رأيت البحث فيـها ، ونظرت من ناحية أسـباب فلاحها ، أو علل سـقوطها ،

وبينت أيضا الطرق التى قد حاول بها الكثير الحصول على مثل هذه الولايات ، لا يبقى أمامى الآن سوى أن أعالج بصورة عامة الوسائل الهجومية والدفاعية التى يمكن أن تستخدم فى كل منها .

لقد سبق أن قلنا : كم يلزم للأمير أن تكون له دعامات صالحة ، وإلا كان القضاء عليه مؤكدا . إن الدعائم الأولى لجميع الولايات ، سواء جديدة أو قديمة أو مختلطة ، هى القوانين الصالحة ، والأسلحة الصالحة . ولما كان من غير الممكن أن توجد قوانين صالحة حيث لا توجد الأسلحة الصالحة ، فسوف أناقش الآن الأسلحة دون القوانين .

ولذا أقول : إن الأسلحة التى يدافع بها أمير عن ممتلكاته إما أن تكون له خاصة : أو أسلحة مأجورة ، أو لحلفاء له ، أو أسلحة مختلطة والأسلحة المأجورة والمساعدة خطرة ، ولا فائدة لها . فلو أقام أحد ولايته على الأسلحة المأجورة فلن يقف راسخا أو واثقا ، لأنها أسلحة مفككة ، وذات مطامع ، وبلا نظام عسكرى ، ولا عهد لها ، وذات جسارة بين الأصدقاء ، وجبانه أمام الأعداء ، ولا توفى بأى عهد مع الناس ، ولا يؤجل خرابها سوى إغارة العدو . هم يسلبونك فى السلم ، والعدو يقوم بذلك فى الحرب . وعلة هذا أنه لايدفعهم حب أو دافع آخر ، سوى الأجر الزهيد ، إلى أن يبقوا فى ساحة القتال ؛ وهذا لايكفى لأن يجعلهم مستعدين لأن يموتوا دفاعا عنك . هم يرغبون تماما فى أن يكونوا جنودك طالما لا تقوم أنت بحرب ، وحين تأتى فإما أن يفروا ، أو

يتسللوا سريعاً وسويا . وينبغى ألا أجد عناء كبيرا فى التدليل على ذلك ما دام خراب إيطاليا الراهن لا يعزى الآن إلى أى أمر آخر سوى اعتمادها سنين طويلة على الأسلحة المأجورة . حقا ، ساعد هؤلاء بعض الأمراء على بلوغ السلطان ، وظهروا شجعانا أقوياء حينما تنافسوا فيما بين بعضهم بعضا ، ولكنهم أظهروا عدم جدارتهم حين أتى الأجنبى . ولذلك حدث أن أتيح لشارل ملك فرنسا أن يستولى على إيطاليا «بالطباشير»[1] . وأولئك الذين يعللون خراب إيطاليا ودمارها بخطايانا صادقون، ولكنها ليست الخطايا التى يعنون، وإنما هى تلك التى ذكرت . ولما كانت هى خطايا الأمراء ، فهم أيضا الذين قد لقوا العقاب .

وسأشرح على وجه أكمل عيوب الأسلحة المأجورة . إن قادتها إما رجال أكفاء أو غير أكفاء ؛ فإذا كانوا أكفاء فإنك لا تستطيع أن تركن إليهم ، لأنهم يستوحون دائما عظمة أنفسهم إما بقمعك أنت سيدهم ، أو بالضغط على غيرك ضد مقاصدك . ولكن إذا كان القائد غير كفء فإنه يدمرك على وجه العموم . وإذا أجابنى إنسان بقوله : إن هذه هى نفس حال كل أمير مع القوات المسلحة ، سواء أكانت مأجورة أم غير مأجورة ، فإنى أقول : إما أن الجيوش يستخدمها أمير أو جمهورية ، وعلى الأمير أن يتولى بشخصه منصب القيادة ، ويجب أن ترسل الجمهورية مواطنيها من أجل ذلك ؛ وإذا ظهر العجز ممن أرسل فينبغى

(١) أى دون أقل عناء .

لها أن تغـيره . وإذا كـان كفئـا قديرا فـيجب بالقانون أن نمـنعه من أن يتجـاوز الحدود المرسومـة . وتدل التجربة عـلى أن الجمهـوريات المسلحة والأمراء المسلحين هم فحسب الذين يتقدمـون تقدما عظيما ، بينما القوات المأجورة ليـست غيـر أذى ، وأن الجمهـورية المسلحة أيضا تـخضع لحكم مواطن من أبنائها بصعوبة أكبر منها فى جمهورية جيشها من قوات أجنبية .

كانت رومـا وإسـبرطـة مـسلحتين تسليحـا قويـا ، وحـرتين لقرون عديدة . ونعم السويسريون بالحرية التامة ، وكانوا مسلحين تسليحا قويا . ولدينا مثال للجيوش المأجورة فى العـصور القديمة وهو القرطاجنيون الذين بطش بهم جنودهم المأجورون بعد نهـاية أول حرب لهم مع الرومانيين ، وفى نفس الوقت الذى كانت القـيادة ما تزال فيه لأبناء قـرطاجنة . ولقد جعل أهل طيـبة فيـليب المقدونى قائدا لقـواتهم عقب مـوت إبامينونداس Epaminondas ؛ وبعـد أن تم له النصـر جردهم من حـريتـهم . ولما قضى الدوق فـيليب نحبه ، اسـتأجر أهل مـيلانو فرنتـشـكو سفـورتسا لمحاربة البنادقـة ، ولما تغلب عليهم فى موقـعة كارافاجو Caravaggio تحالف معـهم لكى يقمع أهل ميلانو ، وهم الذين كـان يعمل عندهم . لقد عمل أبوه في خدمة جوهانا ملكة نابولى ، وتركها فجأة وهى عزلاء، فاضطرت إلى أن ترتمى بين أحضان ملك الأراجـون حتى لا تفقد المملكة ولو قيل إن البـنادقة والفلورنسيين قـد وسعـوا ممتلكاتهم ، فى الأيام التى خلـت ، بالقـوات المأجورة دون أن يجـعل قـوادهم من أنفـسهم أمـراء

عليهم ، ولكنهم دافعوا عنهم ، أجيب : إن الفلورنسيين قد حباهم الحظ في هذه الحالة ، لأن بعض القواد الأكفاء الذين كان يمكن أن يخشوا جانبهم لم يقوموا بغزو ، ولقى بعض آخر معارضة ، ووجه الباقى منهم مطامعه وجهة أخرى . إن الذى لم يقم بغزو وهو السيرجون هوكوود Sir John Hawkwood ، ولا نستطيع أن نحكم على ولائه مادام لم يعرف الظفر . ولكن سوف يعترف كل إنسان بأنه لو كان قد قام بفتح فلربما وقعت فلورنسا تحت رحمته . وكان البراتشسكى Bracceschi ضد سفورتسا الأب على الدوام.وهؤلاء كانوا لبعضهم بعضا عقبة متبادلة . ووجه فرنتشسكو أطماعه إلى لومبارديا ، وبراتشو Braccio إلى الكنيسة ومملكة نابولى .

ولننظر إلى ما حدث منذ مدة وجيزة . عين الفلورنسيون باولو فيتللى Paolo Vitelli قائدا لهم . وهو رجل حكيم لدرجة عظيمة ، أرتفع إلى أسمى مراتب الامتياز من مرتبة عادية ولا ينكر أحد أنه لو كان قد استولى على بيزا لتعين على فلورنسا أن تهتم اهتماما بالغاً بالإبقاء على صداقته ، لأنه لو كان قد حارب فى صفوفه أعدائهم فلربما عدموا سبيلا لمقاومته ، ولو أبقوا عليه لاضطروا إلى الخضوع له أما إذا نظر المرء إلى التقدم الذى أحرزه البنادقة فإنه يرى أنهم كانوا يعملون بثقة وعظمة طالما كانوا يحاربون بقواتهم الوطنية ، حتى أنهم قبل أن يشرعوا فى حملاتهم البرية حاربوا ببسالة بأبناء الطبقة الأرستقراطية والعامة . ولكن حين بدأوا

يحاربون فى البر تخلوا عن هذه الفضيلة ، وأخذوا فى السير على التقاليد الإيطالية . وفى بدء عهدهم بالتوسع البرى لم يكن عليهم أن يخشوا قوادهم كثيرا ، فإقليمهم لم يكن واسع الرقعة وصيتهم لم يكن كبيرا . ولكن حين اتسعت أملاكهم، كما فعلوا تحت قيادة كارمنيولا Carmagnola، تمثل لهم خطؤهم لأنهم حين رأوه من ناحية قويا جدا بعد أن هزم دوق ميلانو، وحين عرفوا ، من ناحية أخرى ، فتور همته فى هذه الحرب ، رأوا ألا يقوموا بأى غزو جديد فيما بعد تحت قيادته . ولم يكن لهم أن يرغبوا فى طرده ، أو أن يستطيعوا ذلك ، خشية أن يفقدوا ما قد استولوا عليه . فلذا اضطروا إلى إعدامه ليأمنوا جانبه . وحينئذ اتخذوا بارتولوميو دابرجامو Bartolommeo da Bergamo وروبر توداسان سفرينو da San Severino Roberto والكونت دى بتليانو Count di Pitigliano وأمثالهم قوادا لهم ، وكانوا يخشون أن تصيبهم من جرائهم الخسارة بدلا من الغنم ، كما حدث فيما بعد فى ڤايلا Vaila ، حيث خسروا فى يوم واحد ما غنموه فى ثمانية قرون بشق الأنفس ؛ وذلك لأننا لا نحرز من الملك إلا قليلا تافها بالقوات المأجورة فى زمن طويل ، ولكنا نتكبد بها خسائر مباغتة وعجيبة . ولما كانت قد اقتبست هذه الأمثلة من إيطاليا التى قد حكمتها القوات المأجورة سنين طويلة ، فسوف أبحث فيها بصورة أكثر تفصيلا لكى نستطيع معالجتها أفضل حين نرى أصلها وتطورها .

يجب أن نفطن إلى أن إيطاليا كانت فى هذه الأيام الأخيرة مقسمة إلى ولايات كثيرة ، حين بدأت الإمبراطورية فى الانحلال السريع وأخذ البابا ينال صيتا فى الأمور الزمنية . وثارت مدن رئيسية كثيرة على نبلائها الذين كان يحبوهم الإمبراطور ، ومن هنا كانت تدين لهم بالطاعة ؛ ولقد شجعت الكنيسة على هذا الأمر لكى تزيد من سلطانها الزمنى . وفى مدن أخرى كثيرة أصبح أحد السكان أميرا . وهكذا كانت إيطاليا قد سقطت جلها فى قبضة الكنيسة تماما وأيدى جمهوريات قليلة . ولما كان القساوسة وغيرهم من المواطنين لم يعتادوا على حمل السلاح ، فقد أخذوا يستأجرون الأجانب كجنود . وأول من أعطى الصيت لهذا النوع من الجندية هو البريجيو دا كومو Alberigio da Como من أهل رومانا ، وبراتشو وسفورتسا اللذان كانا فى حينهما أصحاب الكلمة الأولى فى إيطاليا ، ولقد دبربهما البريجيودا كومو مع غيرهم . ثم جاء من بعدهم جميع أولئك القادة الذين قادوا جيوش إيطاليا حتى الوقت الحاضر ، وكان من نتائج فلاحهم أن تغلب شارل على إيطاليا ، وافترسها لويس ، وطغى فيها فراندو Ferrando ، وأهانها السويسريون. وكان منهج هؤلاء الذى ساروا عليه أن يزيدوا من نبهم أولا بأن يزعزعوا الثقة فى المشاة . وفعلوا ذلك لأنه لم يكن لهم وطن ، وكانوا يعيشون على ما يكسبون ، وقليل من المشاة لا يشهر أمرهم وهم لا يستطيعون أن يحتفظوا بعدد كبير منها ؛ ولذا كادوا أن يقتصروا تماما على الفرسان ، لأن عددا قليلا منهم

يكفى لأن تدفع لهم أجور حسنة ، ويخلع عليهم الشرف . ولقد انحدروا بالأمور إلى تلك الحالة التى لا نجد فيها سوى ألفين من المشاة بين جيش قوامه عشرون ألف جندى . وطرقوا أيضا جميع السبل لكى يخلصوا أنفسهم والجنود من أية مشقة أو خوف ، وذلك بأن يكفوها فى نزالهم مؤونة سفك دم بعضهم بعضا ؛ بيد أنهم كانوا يأسرون الأسرى دون أن نتوقع منهم أخذ فدية . ولقد كانوا لا يهاجمون التحصينات الحربية ليلا ، ولا يغير على الخيام ليلا أولئك الذين يكونون منهم فى داخل الحصون ، ولم يحفروا حول معسكراتهم الخنادق ، ولم يضعوا المتاريس ، ولم يحاربوا فى الشتاء . لقد أجاز قانونهم العسكرى لهم جميع هذه الأمور ، وكان مبتكرا ، كما قلنا ، لتجنب النصب والخطر ، حتى أنهم انحدروا بإيطاليا إلى العبودية ، وأنزلوها إلى الحضيض .

الباب الثالث عشر

فى القوات المأجورة ، والمختلطة ، والوطنية

لقد اصطلح على أن قوات أحد الجيران الأقوياء التى يطلب أمير مجيئها لنجدته والدفاع عنه قوات مساعدة ، وهى عديمة الفائدة كالقوات المأجورة . لقد فعل ذلك فى الأزمنة الأخيرة يوليوس حين رأى فشل

القوات المأجورة الذريع فى حملة فرارا ، ولجأ إلى القوات المساعدة ، ورتب الأمور مع فرديناند ملك أسبانيا على أن يساعده بجيوشه . قد تكون هذه القوات صالحة فى حد ذاتها ، ولكنها دائما خطرة بالنسبة لأولئك الذين يستعيرونها . فالهزيمة لك إن هى انكسرت ، وإن أنت انتصرت ظللت أسيراً لها . ومع أن التاريخ القديم حافل بأمثلة لذلك ، فإننى لن أترك مثال يوليوس الثانى ، فهو مازال حياً فى الذاكرة . لقد كان الطريق الذى سار فيه أبعد الطرق عن الحكمة ، وذلك حين رغب فى أن يأخذ قرارا ووضع نفسه بكلها وكليلها داخل نفوذ أجنبى . ولكن أظهر حسن الطالع فى هذا المقام علة ثالثة حالت دون أن يحصد آثار سياسته الفاسدة ، لأن السويسريين ثاروا وطردوا الظافرين حين هزمت القوات التى كانت تساعده فى **رافنا** ، وذلك على عكس جميع ما كان يتوقع هو أو غيره ، حتى أنه لم يأسره العدو أو القوات التى كانت تساعده ، وذلك لأنه انتصر بأسلحة أخرى غير أسلحتها . واستأجر الفلورنسيون الذين لم يكونوا مسلحين كلية عشرة آلاف فرنسى لمهاجمة بيزا ، وبهذا الإجراء خاطروا بأنفسهم مخاطرة فاقت غيرها فى أى فترة من فترات كفاحهم . وحشد إمبراطور القسطنطينية فى بلاد اليونان عشرة آلاف تركى لكى يقاوم جيرانه ، وهؤلاء رفضوا الجلاء والعودة بعد الحرب ، وكان ذلك بداية استعباد من كفروا بالأمانة لبلاد اليونان .

فليستخدم هذه القوات من لا يرغب فى الظفر . فهى أشد خطرا من القوات المأجورة ، وهى آلة الدمار الكامل ؛ لأنها جميعاً متضافرة وتدين

بالطاعة لغيرك ، بينما تحتاج القوات المأجورة لكى تضرك ، وفى حالة ظفرها ، إلى وقت أطول ، وفرصة مواتية . لأنها جميعاً لا تكون هيئة واحدة ، وأنت الذى تستخدمهم وتدفع لهم الأجور ؛ ولذلك فإن فئة عينتها قوادا لا تستطيع أن تستولى فى الحال على سلطة تكفى لأن تتمكن من الإضرار بك . وقصارى القول : إن أشد أخطار القوات المأجورة فى جبنها واحجامها عن القتال ، ولكن خطر القوات المساعدة فى شجاعتها .

ولذلك يتحاشى الأمير العاقل دائماً أن يستخدم هذه القوات ، ويلجأ إلى قواته الوطنية ، ويفضل أن ينكسر بها على أن يكسر بقوات غيره ، وذلك حين لا يعتبر النصر الذى تكسبه الأسلحة الأجنبية نصراً حقيقياً . ولن أتردد أبداً فى الاستشهاد بقيصر بورجا وأعماله . دخل هذا الدوق رومانا بالقوات المساعدة ، فكانت طلائع قواته تتكون تماما من جنود فرنسيين ، وبهذه استولى على إمولا Imola ، وفورلى Forli . ولكن حين ظهر أن جانبها لا يؤتمن لجأ إلى القوات المأجورة ، لأنها أقل خطرا ، واستأجر الأورزنى والفيتللى . ولما تشكك فى أمرهم بعد تجربتهم ، ووجدهم غير مخلصين وخطرين ، بطش بهم وعول على رجاله هو . ويتسنى للمرء أن يرى بسهولة الفارق بين هذه القوات إذا نظر فى البون بين اسم الدوق حين كان عنده الفرنسيون فحسب ، وعندما اضطر إلى أن يعول على نفسه ويعتمد على جنوده . وإننا نلقى أن شهرته كانت تزداد باستمرار ، ولم يبلغ احترامه أبداً درجة عالية جدا مثلما رأى الجميع أنه سيد قواته الأولى والأخير

ولا أريد أن أترك الأمثلة من تاريخ إيطاليا الأخير ، ولكنى لا أستطيع أن أغفل عن ذكر هيروسيراقوزة الذى قد تحدثت عنه منذ وقت وجيز. حين جعل أهل سيراقوزة هذا الرجل ، كما قلت ، قائد الجيش ، عرف فى الحال ، عدم فائدة ذلك الجيش الذى كان منظما على طريقة قواتنا الإيطالية المأجورة . ولما رأى أن الإبقاء عليه أو الاستغناء عنه أمر غير مأمون ، قطعة إربا إربا ، وأخذ منذ ذلك الحين يحارب بأسلحته . لا بأسلحة غيره . وأستشهد أيضا بقصة رمزية من التوراة توضح هذه النقطة توضيحا جيدا . لما قدم داوود نفسه لشاءول لكى يذهب وينازل جوليات Goliath بطل فلسطين دججه بسلاحه الخاص حتى يشجعه ، ولكن داوود – وقد جرب السلاح – رفضه قائلا : إنه لا يستطيع أن يحارب به جيدا ؛ ولذلك فضل أن يواجه العدو بمقلاعه وخنجره . والخلاصة ، أن أسلحة غيرك إما ألا تكفيك وتقصر عن النصر ، أو تنقض ظهرك ، أو تشل حركتك . إن شارل السابع أبا الملك لويس الحادى عشر حين حرر فرنسا من الإنجليز بشجاعته الفائقة وحظه السعيد ، اعترف بأن من الضرورى أن يكون جيش الأمير من القوات الوطنية ، وأدخل فى مملكته نظاما للفرسان والمشاة . ثم ألغى ولده لويس المشاة ، وشرع يستأجر السويسريين ، واستمر غيره فى هذا الخطأ الذى هو علة الخطر الذى حاق بتلك المملكة ، كما يمكن أن يشاهد الآن . وفرنسا حين أشهرت أمر السويسريين بهذه الصورة وألغت المشاة ، وجعلت فرسانها

تحت رحمـة العون الأجنبى ، أفلت عـزم جميع قـواتها ، لأنهـا ، وقد اعتادت على أن تحارب مع قوات سويسرية ، أصـبحت تعتقد أنها عاجزة عن الغزو بدونها ، ومن هنا حدث أن أصبحت قوة الفـرنسيين غير كافية لمقاومـة السويسـريين ، ولا يخاطرون بـحـرب ضـد غيـرهم بدون عون هؤلاء . وهكذا أصبحت جيوش الفـرنسيين من النوع الخليط ، جزء منها مأجور ، وجزء منها وطنى . وإذا تناولنـاهما سويا فإن هذا الخليط يفوق بدرجـة كبـيرة الجيـوش التى تتكون كلهـا من القوات المأجـورة ، أو من القوات المساعدة ، غير أنه دون القوات الوطنية الخاصة إلى حد كبير .

ولعل فى هذا المثال الكفـاية ، لأن مملكة فرنسا لو حـاولت المحافظة على التنظيم العسكرى لشارل ، أو طورته ، لظلت منيعة الجانب . ولكن البشـر مع عوزهم فى الحكمـة يبدأون أمورا جـديدة ، وحين يجدون أول طعم لها طيبا لا يدركون ما فيـها من سم ، كما سبق أن بينت فى صدد الحميات غير المستقرة .

ولذا كـان الأميـر الذى لا يعـرف فى إمـارته الأخطار وهى فى دور ظهورها أمـيرا غير حكيم فى حـقيقة الأمـر ؛ وهذه الحكمة لا توهب إلا للقليل من الناس . وإذا نـظرنا بعين الإعتـبار إلـى العلة الأولى لسقـوط الإمبراطورية الرومانيـة فإننا نردها إلى مجرد استئـجارهم القوات المأجورة من الغوت . لأننا نلقى قوة الدولة الرومانيـة وقد أخذت فى الضعف منذ ذلك التاريخ ، وتضاف جميع قدرة الرومان هذه إلى الغوت .

وعلى ذلك أختم حـديثى بأن أقول : لا سـلامة لأميـر بدون قواته الوطنية ، وبدونها يتوقف مصـيره على الخط تماما ، مادام لا يملك وسيلة للدفاع يوثق بها حين تضطرب الأمور . لقـد ذهب الحكماء دائما وقالوا : «لاشئ عند البشر مـزعزع ولا يدوم مثل ولايات دعامتها الـشهرة وليست قوتهـا الخاصـة » . إن قوات الأمـير الوطنيـة تتكون إما من الرعـايا أو المواطنين ، أو من أتباعه هو ، وجميع ما عدا هؤلاء أجير ومساعد . ومن اليسـير مـعرفة طريقـة تنظيم المرء لجيـوشه الوطنيـة لو أننا درسنا مناهج الأمراء الأربعـة التى سلف ذكرها ، ونظر المرء بعين الإعـتبـار إلى كيف نظم فيـليب ، أبو الإسكندر الأكبـر ، وكثيـر من الجمهـوريات والحكام المطلقين قواتهم . وبعد هذه الأمثلة لسنا فى حاجة إلى أن نعالج الموضوع بالتفصيل .

الباب الرابع عشر

واجبات الأمير فيما يتعلق بموضوع فن الحرب

ولذا ينبغى للأمـير ألا تكون له غـاية أو فكرة ، أو يتخذ لدراسـته موضوعا آخر ، سوى الحـرب ، وتنظيمها ، ونظامها ، لأن هذا هو الفن الوحـيد اللازم لمن يقـود ، وله من المزية مـا يكفل المحـافظة على أولئك

الذين ولدوا أمراء ؛ فضلا عن أنه يعين غالبا الرجال العاديين حتى يبلغوا مرتبة الإمارة . ويرى المرء من ناحية أخرى ، أن الأمراء يفقدون ولايتهم حين يفكرون فى الترف أكثر من الأسلحة . إن العلة الأولى لضياع الولايات هى احتقار هذا الفن ، وطريقة كسبها تكون فى حذقه .

لقد أصبح فرنتشسكو سفورتسا بحسن تسلحه دوق ميلانو ، بعد أن كان فردا عاديا . وانحدر أبناؤه بعزوفهم عن نصب الحرب ومشقتة إلى أشخاص عاديين بعد أن كانوا أدواقا ؛ لأن من بين مساوئ عدم التسلح الأخرى التى تنجم عنه أن يجعل المرء مزدرى ، وهذا أمر من الأمور التى يجب أن يقى الأمير نفسه شرها ، وسنشرح ذلك فيما بعد وشتان ما بين رجل مسلح ورجل أعزل ، مهما كان الأمر . فليس بمعقول أن نتوهم أن رجلا مسلحا يطيع راغبا رجلا أعزلا ، أو أن أى رجل أعزل يسلم بين أتباع مسلحين . ومن المستحيل أن يعمل الإثنان سويا فى وئام ، لأن أحدهما مزدرى ، والآخر شاك . ولذا كان من غير الممكن لأمير يجهل الشئون الحربية أن يوقره جنوده ، أو يكونوا محل ثقته ، فضلا عن المصائب التى سبق ذكرها منذ وقت قصير .

ولذا ينبغى للأمير ألا يدع التدريب العسكرى يغيب عن باله وخاطره ، وأن يتمرن عليه فى زمن السلم أكثر منه فى وقت الحرب ؛ . وهذا ما يستطيع أن يصنعه بطريقتين : الأولى عملية ، والثانية نظرية .

فـمن الناحيـة العمليـة ، يجب ، بجـانب تنظيم رجاله وتدريبـهم ، أن يشغل نفسـه فى القنص باستمرار ، وبهذا يـعود بدنه على المشاق ، وهو فى نفس الوقت يدرس طبيعة البلاد - انحدار الجبال ، وانفراج الوديان ، ومواقع السهول ، ويفهم طبيعة الأنهار والمستنقعات ؛ وعليه أن يتوفر على جمـيع هذه الأمور لدرجة كبـيرة . ولهذه المعـرفة فائدتها من ناحـيتين . فأولا ، يدرس المرء الـعلم ببلاده ، ويتـسنى له أن يعرف بصـورة أفضل كيف يدافع عنهـا . ثم يستطيع أن يفهم فى يسر أى مكان آخـر قد تلزم ملاحظته ، وذلك عن طريق المعرفة والخبرة التى يكتسبهما فى إقليمه هو، حتى أنه يقدر على أن يصل بسهولة من معرفة البلاد فى إقليمه إلى معرفة الأقاليم الأخـرى. ويعوز الأمـير الذى يفـتقر إلى هـذه المهارة أول لوازم القـائد ، لأن هذه المعرفـة هى التى تعلمـه كيـف يلقى العدو ، وكـيف يعـسكر، وكيف يقـود الجيـوش ، وكـيف يضع خطة المعارك ، وكـيف يحاصر المدن مظفرا .

لقد كان من حلل المديح الأخرى التى خلعـها الكتاب على فيلوپومين Philopoemen أمير الآخيين Achaei أنه لم يكن فى وقت السلم يفكر فى شئ سوى مناهج الشئون العسكرية . وكثيرا ما كان يقف ويسأل حين يكون مع صحـبه خارج المدينة : لو فرض أن كان العـدو فوق ذلك التل وألفينا أنفسنا مع جيشنا ، فأينا قـد يكون أمتع موقعاً ؟ كيف نستطيع أن

نقترب مع العدو ونحافظ على نظامنا دون أن نتعرض للخطر ؟ وإذا أردنا التقهقر فكيف ينبغى لنا أن نفعل ؟ وإذا تقهقر العدو فكيف يجب علينا أن نتعقبه ؟ وكان فيلوپومين يضع أمامهم ، وهم يسيرون ، جميع الاحتمالات التى يمكن أن يتعرض لها جيشه ، ويستمع إلى رأيهم ، ويدلى برأيه ، ويؤيده بالحجج ، حتى أنه وهو يقود جيوشه بالفعل لم يتعرض أبداً لأى حادث لم يكن مستعداً له ، والفضل فى ذلك يرجع إلى هذه التأملات التى لم تنقطع .

ولكن ينبغى للأمير حتى يشحذ ذهنه أن يقرأ التاريخ ، ويدرس أعمال العظماء ، ويرى كيف سلكوا فى شأن الحرب ، ويفحص أسباب انتصاراتهم ، وعلل هزائمهم ، لكى يحذو حذو الظافرين ، ويتحاشى هزيمة المقهورين ، وذلك لكى يسير ، أولا وقبل كل شئ ، على الدرب الذى سار فيه بعض الرجال فى الماضى ، الذين قد اتخذوا قدوة لهم عظيما كان موضع ثناء كبير ، وتمجيد عظيم ، ووضعوا أعماله وأفعاله نصب أعينهم على الدوام ؛ فكما يقولون : قلد الإسكندر الأكبر أخيل Achilles ، وقيصر Caesar الإسكندر ، واقتدى سكيبيو Scipio بقورش . وكل من يقرأ حياة قورش التى كتبها إكسنوفون Xenophon يرى كيف قلد سكيبيو فى حياته قورش تقليدا ماجدا ، وكيف تحلى بالصفات التى وصف بها إكسنوفون قورش من طهر ، ورقة ، وحلاوة شمائل ، وكرم .

إن الأمـير الحكيم ينـبغى له أن ينهج عـلى نفس هذه المناهج ، ولا يخلد فى زمن السلم إلى الخمول أبدا ، ويدأب على الاستـفادة منها بمهارة حتى يمكن أن يجده الحظ ، حين يتبدل ، مسـتعدا لمقاومة ضرباته ، وأن يسود وقت الشدة .

الباب الخامس عشر
فيما يلام عليه الرجال ، أو يمدحون له ، وخاصة الأمراء منهم

ولا يبقى الآن سوى النظر فيما هى مناهج الأمير وقواعده فيما يتصل برعاياه وصحبه . ولما كنت أعلم أن كثـيرين قد كتبوا فى هذا الموضوع ، فإنى أخـشى أن تعد كتـابتى غرورا ، حين تخـتلف عن آراء الآخرين ، وخاصة فى هذا الموضوع . ولكن يبـدو لى أن الأصح ، وأنا أقصد كتابة شئ يفيـد الذين يعلمون ، أن أصل إلى حـقيقـة الموضوع الواقعـية دون تخيلها . إن كـثيرين قد تخـيلوا جمهوريات وإمارات لم تقـع عليها عين إنسان ، ولم يعـرف لها وجود واقـعى ، لأنه شتان مـا بين الحياة كـما نعيـشها والحيـاة كما ينبـغى إن نعيشهـا ، ولذا فإن من يترك مـا يفعل

بالفعل إلى ما ينبغى أن يفعل سوف يعلم أنه يسعى بالأحرى إلى حتفه دون بقائه . إن المرء الذى يريد أن يحترف الخير فى كل الأمور سوف يحزن بين الأشرار وهم كثيرون جدا . ولذا يتحتم على الأمير الذى يبغى المحافظة على نفسه أن يعرف كيف لا يكون خيرا ، وكيف يستخدم هذه المعرفة ، وكيف لا يستخدمها ، تبعا للضرورة .

ولذا فإننى حين أترك جانبا الأمور التى تخص الأمير الخيالى فحسب ، وأتكلم عن تلك الأمور الواقعية ، أقرر أن ذكر جميع الناس ، وخاصة الأمراء الذين هم أسمى منزلة من غيرهم ، يكون لخصال معينة تجر عليهم اللوم ، أو تكسبهم الثناء ؛ ولذلك يعتبر الناس واحدا سخيا والآخر مقترا ، واحدا يعطى بسخاء وغيره جشعا ، واحدا قاسيا وغيره عطوفاً ، واحدا لا يحفظ كلمته والثانى جديرا بالثقة ، واحدا رعديدا والآخر عنيفا جرئيا ، واحدا رقيقا والثانى متغطرسا ، واحد فاسقا والآخر عفيفا ، واحدا صريحا والآخر داهية ، واحدا صعب المراس والثانى سهل القياد ، واحدا جادا فى الأمور والآخر مستهترا ، واحدا متدينا والآخر غير متدين ، وهكذا . . . . وأعلم أن كل إنسان سوف يسلم بأن الأمير يكون أكثر استحقاقا للثناء لدرجة عالية إذا كانت له جميع هذه الخصال السابقة التى تذكر فى باب الخير . ولكن لما كان من غير الممكن أن تكون جميعها له ، أو يراعيها ، لأن الظروف البشرية لا تسمح بذلك ، كان من الضرورى له أن يكون حكيما حكمة تكفى لأن يتحاشى شر فضيحة

تلك الرذائل التى قد تفقده الـولاية ، ويقى نفسه ، إذا أمكن ذلك ، شر تلك التى لن تفقده إياها .

ولكن إذا لم يتسن له ذلك فيمكنه أن يهملها ويحترس تماما من هذه الـتى قـد تسـبب هلاكـه . إلا أن الواجـب عليـه ألا يعبـأ بتـاتـا بالتعـرض لفـضيحـة تلك الرذائل التى بدونها قد تصـعب المحافظة على الدولة ؛ لأن الإنسـان إذا نظر نظرة صحـيـحة إلى الأمـور فإنه يجـد أن بعـضهـا الـذى يبدو فـضائل قـد يرمينا فى الـتهلكة لو سـرنا علـيه ، وبعضـها الآخـر الذى يبـدو رذائل تنجم عنـه سلامـة للإنسان أكـبر ، وهناءة أعظم .

الباب السادس عشر
فى السخاء والتقتير

والآن حين أبدأ بأولى الصـفات التى سـبق أن ذكرتهـا أقول : قـد يكون من الأمور الصـالحة أن يعتبـر الأمير سخـيا ؛ إلا أن السخاء كـما يفـهـمه الخلق سـوف يؤذيك ، لأنه إذا استـخـدم بمعناه ، وبالطريقـة الصحـيحة ، فـسوف لا يعلم أحـد عن سخائه ، وينتج عـنه عار الرذيلة المضادة . ولكن المرء الذى يريد أن يشـتهر بالسـخاء بين الناس يجب ألا

المضادة . ولكن المرء الذى يريد أن يشتهر بالسخاء بين الناس يجب ألا يتخلى عن كل نوع من التظاهر الفخم ، وإلى مثل هذا الحد سوف يستهلك أمير له هذا الطبع جميع موارده ، ويضطر فى نهاية الأمر - إذا أراد أن يحافظ على اشتهاره بالسخاء - إلى أن يفرض على شعبه ضرائب باهظة ، ويأخذ أتاوات ، ويبذل كل ما فى وسعه ليحصل على المال . وهذا ما سوف يجعل رعاياه يأخذون فى كراهيته ، ويكون قليل الاحترام حين يصبح فقيراً ، حتى أنه حين يكون قد أضر الكثير بسخائه ، ولم يفد به غير القليل ، يحس بأول اضطراب بسيط يحدث ، ويحدق به كل خطر عند الشدائد . فإذا أقر ذلك ورغب فى أن يبدل تقليده ، فسوف يتهم فى الحال بالتقتير .

ولهذا يجب على الأمير الذى لا يستطيع أن يمارس فضيلة السخاء هذه دون أن تعرف عنه ، ألا يخشى ، إذا كان حكيما ، أن يقبل الاشتهار بالتقتير ، وسوف يعد سخياً أكثر من ذلك على مر الزمن ، حين نرى أن اقتصاده جعل دخله كافياً لكى يستطيع أن يدافع عن نفسه ضد أولئك الذين يشنون عليه الحرب ، وأن يقوم بأعمال عظيمة دون أن يثقل كاهل شعبه ، حتى أنه يصبح سخياً حقاً بالنسبة لمن لم يأخذ منهم شيئاً ، وعدد هؤلاء لا يحصى ، ومقتراً بالنسبة لكل من لم يعطهم ، وهؤلاء قليلون . إننا لم نر فى أيامنا عملا عظيما إلا وقد صدر عن أولئك الذين عدوا مقترين ، ولقد تحطم غير هؤلاء جميعاً . إن البابا يوليوس الثانى ،

هذا الصيت فيما بعد حتى يمكنه أن يقوى على القيام بالحرب . ولقد استمر ملك فرنسا الحالى فى حروب كثيرة جداً دون أن يفرض ضريبة استثنائية ، لأن ما اقتصده فى مدة طويلة غطى ما زاد على نفقاته . ولو عرف ملك أسبانيا الحالى بالسخاء لما أمكنه أن يتوفر على هذه الأعمال الكثيرة ويوفق فيها .

ولهذه الأسباب يجب ألا يعبأ الأمير كثيرا حين يعرف بالتقتير ، لو أراد أن يتجنب اغتصاب رعيته ، وأن يكون قادراً على حماية نفسه ، وألا يصبح فقيراً وحقيراً ، وألا يضطر إلى أن يصبح جشعاً . إن هذا التقتير رذيلة من تلك الرذائل التى تمكنه من الحكم . وإذا قيل : إن قيصر بلغ الإمبراطورية بالسخاء ، وكثيرين غيره صعدوا إلى أعلى منزلة بالسخاء ، أو بالاشتهار به ، فإنى أرد قائلا : إما أنك أمير حديث العهد ، أو أنك تسير على درب الإمارة . وفى الحالة الأولى ، يكون هذا السخاء مضراً ؛ وفى الحالة الثانية ، يتحتم عليك بالتأكيد أن تحسب فى عداد الأسخياء . لقد كان قيصر واحداً من أولئك الذين رغبوا فى أن يصبحوا سيد روما . ولكنه لو عاش ولم يعدل فى نفقاته بعد أن بلغ مراده فلربما هدم الإمبراطورية وقوضها . وإذا قيل : كان ثمة كثير من الأمراء الذين أتوا بجيوشهم أموراً عظيمة ، وكانوا يعدون مع ذلك أسخياء إلى أقصى حد ، فأنى أجيب قائلا : إما أن الأمير ينفق من ثروته الخاصة ومن مال الرعية ، أو من ثروة الآخرين ؛ وفى الحالة الأولى ، ينبغى أن يعرف بالحرص فى النفقة ، وفيما عدا ذلك يجب أن يهتم بأن يكون سخيا

جداً . والسخاء ضرورى جدا لأمير يسير مع جيوشه ويعيش على النهب ، والغنيمة والفدية ، وينفق من ثروة غيره ، لأن جنوده لن يسيروا خلفه بدون سخاء . ويمكنك أن تكون بالفعل سخيا جدا ، بما ليس ملكا خاصا لك أو لرعاياك ، كما كان قورش ، وقيصر ، والإسكندر ، لأنك حين تنفق ثروة الآخرين فلن يحط ذلك من سمعتك ، بل يعلى من ذكرك ، ولا يؤذيك سوى النفقة من ثروتك الخاصة فحسب . وليس ثمة ما يحطم نفسه بنفسه كالسخاء ، لأنه كلما كان المرء سخياً فقد القدرة على أن يكون سخيا ، ويصبح إما فقيراً حقيراً ، أو جشعاً بغيضا ، وذلك حتى يتحاشى الفقر ، وأهم ما يجب أن يتقى الأمير شره من بين جميع هذه الأمور أن يصبح حقيراً أو بغيضاً ؛ والسخاء يقودك إلى إحدى هاتين الحالتين . ولذلك كان الأحكم أن يشتهر الأمير بالتقتير الذى يجر عليه اللعنة دون البغضاء ، وألا يضطر إلى أن يعرف بالجشع ، لأن هذا يولد الخزى والكراهية معاً .

الباب السابع عشر
فى الشدة واللين

وفيما إذا كان الأفضل أن يكون الأمير محبوبا أو مُهاباً .

وحين نمضى قدما إلى الصفات الأخرى التى سبق ذكرها أقول : يجب على كل أمير أن يرغب فى أن يعد رحيما لا شديدا ، وأن يهتم بألا يسئ استخدام هذه الرحمة بأية حال . لقد عد قيصر بورجا شديدا ، ولكن شدته هى التى أتت بالنظام والوحدة فى رومانا ، وجعلت الأمن يستتب فيها ، والولاء يسود . وإذا نظرنا إلى هذا الأمر نظرة صحيحة فإننا نرى أن قيصر كان فى الواقع أكثر رحمة من الشعب الفلورنسى الذى أتاح تدمير بستويا Pistoia لكى يتحاشى أن يعرف بالشدة . ولذا يجب على الأمير ألا يعبأ بأن يتهم بالشدة مادامت من أجل المحافظة على وحدة رعاياه وولائهم ؛ لأنه حين يشتد مع عدد قليل جدا يكون أرحم من هؤلاء الذين يتمادون فى اللين فيتيحون قيام القلاقل ، ومن هنا تراق الدماء ، ويحدث النهب . وهذه الأمور كقاعدة تضر جماعة فى مجموعها ، بينما تنفيذ الإعدام فى أفراد لا يؤذى غيرهم . ونجد من بين جميع الأمراء أن الأمير الحديث العهد لا مناص له من الاشتهار بالشدة ، لأن الولايات الجديدة حافلة بالأخطار دائما ، ومن هنا يقول فرجيل Virgil على لسان ديدو Dido :

إن الحالة العصيبة حيث شئونى

وعرش غير ثابت الأركان ، ودولة فى طفولتها ،

- مثل هذا النوع من الظروف القاسية ،

يقسرنى على وضع الحاميات فى كل اتجاه ،

وحماية أملاكى بكل ما أوتيت من سلطان ،

وحراسة الشواطئ حراسة غيورة .

ومع ذلك يجب أن يكون حذرا فيما يعتقد وفيما يقدم عليه ، وألا يظهر بمظهر الوجل يخيفه ظله ، وأن يسير إلى الأمام فى اعتدال وحكمة ولين ، حتى لا تجعله الثقة المفرطة غير حذر ، أو الريبة المسرفة غير محتمل .

ومن هنا تظهر مشكلة المفاضلة بين أن يحب الأمير أكثر مما يهاب وبين أن يهاب أكثر مما يجب . والجواب هو : ينبغى للمرء أن يكون محبوبا ومهاباً معا . ولكن لما كان من الصعب أن تسير الخلتان سويا ، فإن مهابته أسلم بكثير من محبته ، إذا لم يكن بد من أن تعوزنا خلة واحدة منهما . لأنه يمكن القول عن البشر عموما إنهم يجحدون المعروف ، ويهذرون فى الكلام ، ويظهرون غير ما يبطنون ، ويقلقون على تحاشى الخطر ، ويطمعون فى الكسب ؛ وطالما تفيدهم فهم أعوانك تماما ، يفدونك بدمهم ومتاعهم وحياتهم وولدهم ، حين تكون الضرورة إليهم بعيدة . ولكن حين تقترب ينقلبون عليك ، ويهلك الأمير الذى لم يعول إلا على وعودهم دون أن يتهيأ بالعدد الأخرى ، لأن الصداقة التى تكتسب عن طريق الشراء لا عن طريق عظمة الروح ونبلها تشترى ، ولكنها غير مأمونة ، ولن تستخدم لمصلحتك عند الطوارئ . إن البشر

يتـرددون فـى الإسـاءة إلى مـن يحـبون أقل مـن ترددهم فى إيذاء من يهـابون ، لأن إلزام الحب الذى يشـده يقطع فى كل فـرصـة من فـرص مصلحتـهم ، لأن البشر أنانى . ولكن الفزع من العـقاب الذى لا يخفق أبدا يحفظ الخوف ويصونه .

ومازلنا نقول بأنه ينبـغى الأمير للأمير أن يجعل نفســه مهابًا بطريقة إذا لم تكسبـه الحب فهى تقيـه من البغضاء على أية حـال ؛ لأن الخوف وعدم الكراهيـة قد يسيـران معا سيـرا حسنا ، ويصل إليهـما على الدوام إنســان يمتنع عن التدخـل فى ملكية مـواطنيـه ورعاياه ونسـائهم . وحين يضطر الأميـر إلى أن يعدم فردا ما فـدعه يفعل ذلك حـينما يكون هناك تبرير صـحيح له ، وعلة واضحة . ولـكنه يجب أن يمتنع أولا عن آخذ ملكية غيره ، لأن نسيان البشـر لموت آبائهم أيسر عندهم من نسيان ضياع ملكهم . ثم إن المعاذير أيضا للاستيلاء على ملكية لا تعوز الأمير أبدا ؛ والذى يأخذ فى العيش على النهب سـوف يجد دائما سببا مـا لاغتصاب متاع سواه ، بينما علل الإعدام أكثر ندرة ، وتمضى أسرع من غيرها .

ولكن من الضرورى ضرورة قصوى ألا يعبأ الأمير بأن يعرف بالشدة حين يكون مع جيشه ويقود عددا كبيرا من الجنود ، لأنه لا يستطيع بدون هذه الشهرة أن يحافظ علـى جيش متحدا أو مستـعدا للقيام بأى واجب . إن من بين أعمال هـانيبال Hannibal الجديرة بالذكـر أنه بالرغم من أن جيـشه كان عرمـرما ، ويتكون من رجال من جـميع الشعـوب ، وكانوا يحاربون فى بلاد أجنبيـة ، فإنه لم يقع أى خلاف فيـما بينهم ، أو ضد

الأميـر ، سواء فى السراء أم فى الضـراء . ولا يمكن أن يعزى ذلك إلى غيـر شدة هانيـبال غيـر اللينة التى جـعلته ، مع قدراتـه الأخرى التي لا تحصى ، عظيـما ومهابًا باسـتمرار عند جنوده . وما كـانت هذه القدرات كـافيـة لأن تعطى ذلك الأثر لو لم يكن شـديدا . إن الكتـاب الذين لا ينظرون فى الأمور يعجبون من ناحية بأعـماله ، ويعيبون عليه علتها وهى شدته ، من ناحية أخرى . ومن حالة سكيبيو Scipio يظهر صدق القول بأن قدرات هانيبـال غير الشدة لم تكن تكفى لأن يأتى بالأعـمال التى قام بها . (إن سكيبيو مشهور لا بالنسـبة لعصره فحسب ، ولكن ذكراه باقية فى كل عصـر) . لقد ثارت عليـه جيوشـه فى أسبانيـا ، لا لسبب غـير شفقته المسرفة التى أتاحت لجنوده من الفوضى أكثر مما كان يتفق مع النظام العسكرى . ولقد وجه إليه فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus اللوم فى السناتو على ذلك وأطلق عليه : « مفسد الجندية الرومانية» . لقد دمر لوكرا Locra أحد ضباط سـكيبيو فلم يقتص لها ، ولم يعـاقب الضباط على قحتـه ؛ والسبب ببساطة هو طبيـعته السهلة ، حتى أن أحـد أعضاء السناتو ، وقـد أراد أن يعذره فى المجلس قال : إن هناك رجـالا كثـيرين يعرفون بالأحرى كيف لايخطئون أكثر من معرفتهم كيف يصححون خطأ سواهم . إن هذا الاستعداد كان يمكنه بمرور الزمن أن يطفئ شهرة سكيبيو وعظمته لو دأب عليـه فى عهد الإمبراطورية ، ولـكن هذه الخصلة الضارة لم تختف فحسب وهو فى عهد السناتو ، بل وأصبحت مجدا له .

وعلى ذلك أقول فى الختام ، فيما يتعلق بمهابة الأمير ومحبته ، إن الناس يحبون بإرادتهم الحرة ، ولكنهم يخافون برغبة الأمير ؛ والأمير العاقل يجب عليه أن يركن إلى ما فى سلطانه لا سلطان سواه ، وما عليه سوى السعى إلى مجانبة ما يجلب عليه الكراهية ، كما أوضحنا .

الباب الثامن عشر
فى الطريقة التى يحفظ الأمراء بها عهدهم

كل امرئ يدرى كم يثنى الناس على أمير يحفظ العهد ، ويعيش مستقيما ، ومن غير مكر . ولكن التجربة فى أيامنا تدل على أن أولئك الأمراء الذين أتوا أعمالا عظيمة هم الذين لم يراعوا الوفاء إلا قليلا ، وهم من استطاعوا أن يشوشوا العقول بالمكر ، ومن تمت لهم الغلبة على هؤلاء الذين قد اتخذوا الأمانة ، قاعدة لهم .

ويجب أن تعلم أن ثمة طريقتين للعراك ، واحدة قانونية ، والأخرى بالقوة ؛ الأولى للبشر ، والثانية للحيوانات المفترسة . ولما كانت الأولى لا تكفى غالبا ، فيجب أن يلجأ المرء إلى الثانية . ولذلك كان من الضرورى للأمير أن يعرف معرفة جيدة كيف يستخدم كلا الطريقتين . لقد علم الكتاب القدامى وأوحوا بذلك إلى الأمراء ، فهم يروون كيف أن

أخيل Achilles ، وكثيرا ممن سـواه من أولئك الأمراء القدامى قد أرسلوا إلى كيرون Chiron لينشئهم تبعا لنظامه ويربيهم . ويقصدون من صورة هذا المعلم ذى النصف البـشرى والنصف الحـيوانى أن يبـينوا أن الواجب على الأمير أن يعرف كيف يستخدم الطبـيعتين معا ، وأن واحدة منهما ، ومن دون الأخرى ، لا تدوم .

ولما كان الأمير ، لذلك ، مضطرا إلـى أن يعرف جيدا كيف يسلك كالحيـوان ، فيجب عليه أن يحاكى الثـعلب ويقلد الأسد ، لأن الليث لا يستطيع أن يحمى نفسه من الفخاخ ، والثعلب لا يقدر على أن يدافع عن نفسه ضد الذئاب . ولذا يجب على المرء أن يكون ثعلبـا ليعرف الفخاخ، وأن يكون ليثا ليخـيف الذئاب . إن أولئك الذين يرغبون فى أن يكونوا أسودا فحـسب لا يفهمون هذا الأمر . ولذا يجـب على الحاكم العاقل ألا يحفظ عـهدا يكون الوفاء به ضد مـصلحته ، وحين تنتهى الأسـباب التى جعلته يرتبط به. إن هذا المبدأ قد يكون شرا لو كان جميع البشر خيرين، ولكن لما كانوا جميعا أشـرارا ، ولن يراعوا وفاءهم معك ، فأنت لذلك فى حل من أن تحفظ عهدك مـعهم . إن الحاكم الذى رغب فى أن يظهر عذرا مموها لعدم نجز وعده لم يخفق أبدا فى أن تكون عنده أسباب شرعية لذلك . وهناك عـدد لا حـصر له من الأمـثلة الحـديثـة لذلك يمكن أن نضربهـا ، وتبين كم مرة انتـهكت فيهـا حرمة الـسلم ، وكم من وعود أصـبـحت باطلة لعـدم وفـاء الأمـراء بهـا ، وترينا أن هؤلاء الذين قـد

استطاعوا تقليد الثعلب أحسن تقليد نجحوا أحسن نجاح . ولكن من الضرورى أن يكون فى وسعنا إخفاء هذا الخلق جيدا ، وأن تصبح مموها عظيما ، وخداعا كبيرا ؛ والناس من البساطة بحيث أنهم على استعداد لأن يذعنوا للضرورات الراهنة ، حتى أن الذى يخدع سوف يجد دائما أولئك الذين يجيزون لأنفسهم أن يخدعوا .

ولن أذكر سوى مثل واحد حديث . لم يفعل الإسكندر السادس شيئا سوى أن غرر بالناس ، ولم يخطر له غير ذلك ، ووجد دائما الفرصة . ولم يبرز عليه إنسان أبدا فى القدرة على إعطاء الضمانات ، وتوكيد الأمور بأغلظ الأيمان ، ولم يكن ثمة من فاقه فى عدم الوفاء بها . ولقد كان يوفق على حيله على الدوام ، ومهما كانت الظروف ، لأنه فهم جيدا هذا المظهر للأمور .

ولذلك فليس من الضرورى لأمير أن يستحوز على جميع الخصال التى سبق ذكرها ، ولكن من اللازم جدا أن يبدوا حائزا لها . وقد أجرؤ على القول بأن التحلى بها مع مراعاتها على الدوام أمر خطير ، ولكن التظاهر بالتحلى بها أمر مفيد . وعلى ذلك ، فإن من الخير أن يبدو الأمير رحيما ، وفيا ، حلو الشمائل ، صادقا ، متدينا ، وأن يكون كذلك أيضا . ولكن يجب أن يكون عقلك مهيأ لأن تستطيع أن تتغير إلى أضداد هذه الخصال حين تحتاج إلى أن تصبح غير ذلك . ويجب أن يكون مفهوما أن الأمير ، وخاصة حديث العهد ، لا يمكن أن يراعى

جميع تلك الأمـور التى تعد خيرا عند الناس ، لأنه يضطر فى كـثير من الأحيان إلى أن يأتى أعمالا ضد الوفـاء ، وضد الإحسان ، وضد حلاوة الشمائل ، وضد الدين ، لكى يحافظ على الدولة . ولذا يجب أن يكون عقله مـعدا لأن يكيف نفسه مع الريح التى تهب ، وكـما تملى تغـيرات الحظ. ويجب ، كـما سـبق أن قلنا ، ألا ينأى عمـا يكون خـيرا ، إذا أمكن ذلك ، إلا أنه يجب عليـه أن يكون قادرا على أن يقتـرف الشر إذا اضطر إليه .

ويجب أن يعنى الأمير عناية فائقة بألا يخـرج من بين شفتيـه مالا يحفل بالخصـال الخمس التى سبق أن ذكرتها . ويـنبغى له أن يظهر لمن يراه ، ويبدو لمن يسمعه ، متوفرا على الرحمة ، والصدق ، والاستقامة ، والدين . ولا شئ أشد ضرورة من أن يتظاهر بالخصلة الأخيرة ، فالناس عامة يحكمـون بما يرون بأعينهم أكثر مما يحكمـون بما يلمسون بأيديهم ، لأن كل امرئ يستطيع أن يـرى ، ولكن قلة قليلة تملك أن تلمس ما أنت عليه ، وتلك القلة لـن تجرؤ على أن تعارض الكثرة الـتى يحميهـا جلال الملك . فى أعمـال كافة البـشر ، وخاصة أعـمال الأمراء ، الغـاية تبرر الوسيلة ، لأنه لا يمكن نقض هذا الحكم . ولذا فليهدف الأمير إلى الظفر بالولاية ، والمحـافظة عليهـا ، وسوف يـكون الحكم على الوسائل دائمـا بأنها شـريفة ، ويثنى عليـها الجمـيع ، لأن العامة تحكم دائـما بالمظاهر الخارجـية للأشـياء ، وبنتـائج الحدثان ؛ ولا يتكون هذا العـالم إلا من

هؤلاء . والقليل الذى يكون غير ساذج ينعزل حينما تجد الكثرة فى الأمير شيئا يجمعهم حوله . إن أميرا معينا فى عصرنا ، ويحسن ألا نذكر اسمه ، لم يفعل شيئا أبدا سوى التوصية بالسلام ، والدعوة إلى الوفاء ، وهو فى الحقيقة عدو لدود لهما ؛ ولو أنه راعى أيا منهما لأضاع ذلك دولته ، وأخسره اسمه ، فى مناسبات عديدة .

الباب التاسع عشر

فى أنه يجب على الأمير مجانبة أن يكون مزدرى أو مبغضا

ولكن لما كنت قد تحدثت الآن عن أهم الخصال التى نحن بصدد البحث فيها ، فسوف أعالج الآن بالتفصيل وبصورة عامة الخصال الأخرى . يجب على الأمير ، كما قررت منذ برهة وجيزة ، مجانبة تلك الأمور التى تجعله مبغضاً أو مزدرى ؛ وحين يوفق فى هذا الأمر يكون قد قام بدوره ، ولن يجد فى الرذائل الأخرى أى خطر . وأول ما يجعله مبغضا ، كما قلت ، أن يكون جشعا ، وأن يغتصب ملكية رعاياه ونساءهم ؛ وهذا ما يجب أن يمتنع عن فعله . ومادام المرء لايعتدى على ملكية عامة الناس أو شرفهم فإنهم يعيشون راضين ، ولن يكون عليه سوى أن يصارع مطامع فئة قليلة ، ومن السهل أن يكبح جماحها بطرق

شـتى . ويصبح الأمـير مـزدرى حين يظن به عـدم الثبـات ، والنزق ، والتخنث ، والجبن ، وضعف العزيمة ؛ وهذا ما يجب أن يتقى شره اتقاء الربان لصخرة مهلكة . وعلى ذلك ، فمن واجبه أن يدأب على أن تظهر أعماله للعـيان العظمة ، والقدرة ، والجد ، والجلد . وليـذر ما يقضى به وهو يحكم رعـاياه لا يقـبل النقض ، ويتـمسك بقـراراته حـتى لا يمكن لإنسان أن يفكر فى خداعه أو غشه .

إن الأمير الذى يخلق هذا الرأى عن نفسه يفوز بصيت عظيم ، ومن الصعب التآمر عـلى امرئ نابه جدا ، ولن يعتدى عليه مـعتد فى يسر ، طالما يعـرف عنه أنه قدير ، وتجـله رعيـته . لأن الأمـير يجب عليـه أن يخـشى أمرين : الأول داخلى يتـصل برعاياه ، والثـانى خارجى يتـعلق بالقوى الأجنبـية . أما الأمـر الثانى ، فهـو يستطيع أن يحمى نفـسه منه بالأسلحة الصـالحة ، والأصدقـاء الأوفياء ، وهؤلاء لن يعـدمهم أبدا لو كانت عنده الأسلحة الصـالحة . أما الأمور الداخليـة ، فستظل هادئة على الدوام مالم تجعلها مـؤامرة تضطرب ، ولم يحدث اضطراب من الخارج . وحتى لو فرض أن سـعت قوى خارجية إلى الهـجوم عليه فإنه سيـصمد دائما ، ويمكنـه أن يحتمل كل هزة ، لو أنه حكـم وعاش كمـا قررت ، ومثلما بينت بما فـعل نابيس الإسبرطى . وأما بالنسبة لـرعاياه ، فما زال عليه أن يخشى أن يتآمروا عليه سراً ، هذا إذا لم تعمل رعيته بنصائح من الخارج . وهذا مـا يمكن أن يتقى شره جـيدا بمجانبـة البغض والازدراء ،

والإبقاء على الشعب راضيا عنه ؛ ومن الضرورى إنجاز هذا الأمر ، كما ذكرت بالتفصيل وإن أنجع علاج لأمير من هذه المؤامرات هو ألا تبغضه كتلة الشعب ، لأن كل متآمر يعتقد دائما أنه سيرضى الشعب باغتيال الأمير . ولكن لو رأى المتآمر أنه حين يفعل ذلك يسئ إلى كتلة الشعب فإنه يخشى القيام بمثل هذا العمل ، لأن الصعاب التى لابد من أن يواجهها المتآمرون لا تدخل تحت حصر . وتدل التجربة على أن مؤامرات كثيرة جدا قد وقعت ولكن القليل منها قد نجح ، لأن كل من يتآمر لا يستطيع أن يعمل بمفرده ، ولا أن يجد شركاء له إلا بين أولئك الساخطين ، وسرعان ما تقدم للمتبرم الوسيلة لإرضاء نفسه حين تكشف له عن قصدك ، لأنه حين يفضح نيتك يمكنه أن يأمل فى أن يوفر لنفسه كل شئ يبغيه . وهو حين ينظر ربحاً معيناً من وراء ذلك ، ولا يرى ، من ناحية أخرى ، سوى أمر مشكوك فيه ، محفوف بالخطر ، فلابد من أن يكون أحد اثنين : إما صديق نادر لك ، أو عدو لدود للأمير ، وذلك إذا وفى بعهده معك . ولبيان هذا الأمر بإيجاز أقول : لا شئ من جانب المتآمر يفزعه سوى الخوف ، والغيرة ، والريبة ، والعقاب . ومن جانب الأمير نجد أن جلال الحكم ، والقوانين ، وحماية الأعوان والولاية تذود عنه وتحرسه . وحين نضيف إلى هذه الأمور إرادة الشعب الطيبة نحو الأمير يستحيل أن يكون لدى أى إنسان طيش التآمر عليه ؛ لأنه بينما لابد للمتآمر من أن يشعر

بالخوف عامة قبل تنفيذ مؤامـرته ، فمن الضرورى أيضا أن يشعر بالخوف بعد أن ينجزهـا ، فالشعب عدوه ، وعلى ذلك فهـو لا يستطيع أن يأمل فى أى ملاذ له .

ويمكننا أن نضرب أمثلة لذلك لا حصـر لها ، ولكنى سأكتفى بمثل يذكـره آباؤنا . لقد تآمـر الكنسكى Canneschi على هانيبال بنتـيفولى Annibale Bentivogli أمـير بولونيـا ، وجد هانيـبال الحـالى ؛ ولم يخلف من أقرباء سوى جـيوفانى Giovanni الذى كان طفـلا حينذاك . ولكن بعد الاغتيال غضب الشعب وقتل الكنسكى كافة . ولقد كان الدافع له عـلى ذلك هـو الإرادة الطيـبة التـى تمتع بها بيت بنتـيفـوللى فى ذلك الحين . وقد كانت هذه عظيمة حتـى أن أهل بولونيا حين سمعوا أن فردا من أسرة بنتيفولى موجود فى فلورنسا ، وكان يظن أنه ابن حداد ، ذهبوا ليحـضروه ، ومنحوه حكم المدينة ، وظل يحكمـها حتى شب جيـوفانى وأصبح فـى السن المناسب ليمـسك بزمام الحكم ، فلم يكـن ثمة خليـفة لهانيبال يستطيع أن يحكم الدولة بعد موته .

وعلى ذلك فالنتيجة هى أن الأمير فى غيـر حاجة إلى أن يعبأ كثيرا بالمؤامرات حينما يكون استعداد الشعب نحوه استعدادا طيبا ، ولكن حين يناوئونه ، ويشعـرون نحوه بالكراهية ، فـالواجب على الأمير حـينئذ أن يخشى كل فرد ، ويخاف كل شئ . إن الولايات المنظمة تنظيما صالحا ،

والأمراء العقلاء ، قد عزموا وثابروا على ألا يسوقوا النبلاء إلى القنوط منهم ، وأن يرضوا الشعب ويبقوا عليه راضيا ، لأن هذا من أهم الأمور التى لابد من أن يعالجها أمير .

وفرنسا من بين الممالك ذات النظام والحكم الصالحين فى وقتنا الحاضر ، وفيها نجد عددا لا يحصى من التعاليم الصالحة ، وعليها تعتمد حرية الملك وسلامته . وأول هذه التعاليم البرلمان وسلطته ؛ لأن من أقام تلك المملكة ، وقد كان يدرى عن مطامع النبلاء الكبار وغطرستهم ، عد من الضرورى وضع لجام فى أفواههم ليكبح جماحهم . ولما كان يعرف ، من ناحية أخرى ، الكراهية التى تحس بها كتلة الشعب نحو النبلاء ، ودعامتها الخوف ، وحين أراد أن يؤمنهم لم يرغب فى أن يجعل هذا الأمر من هموم الملك الخاصة حتى يخلصه من السخط الذى قد يتولد بين النبلاء حين يجامل الشعب ، ومن تبرم الشعب حين يجامل النبلاء . ولذلك أقام فيصلا ثالثا كبح جماح النبلاء على الدوام ، وجامل الشعب وهو دونهم ، ومن غير مسئولية مباشرة للملك . وما كان فى الإمكان اتخاذ أى إجراء أحكم من هذا وأفضل منه ، أو احتياط لسلامة الملك والمملكة يفوق ذلك . ومنه نستطيع أن نستخلص قاعدة أخرى جديرة بالمراعاة ، ألا وهى واجب إناطة الأمراء تنفيذ الواجبات غير الشعبية بغيرهم ، وأن يستخلصوا لأنفسهم الجميل . وختاما أقول مرة أخرى . على الأمير أن يوقر نبلاء ولايته ، ولكن عليه ألا يجعل العامة تناوئه .

وقد يبدو للبعض أننا حين ننظر فى مجرى حياة كثير من الأباطرة رومان وموتهم أنها أمثلة تعارض رأيي ، حين نجد بعضا منهم وقد عاش دائما عيشة النبلاء وأظهروا قوة فى الطبع عظيمة ، ومع ذلك فقدوا إمبراطوريتهم ، وقتلهم رعاياهم الذين تأمروا عليهم . وعندما أرغب فى الرد على هذه الاعتراضات فإنى أناقش خصال بعض الأباطرة مبينا أن علة هلاكهم لم تختلف عما قررت ، وأنظر أيضا فى نفس الوقت إلى الأمور التى لابد من أن يلاحظها كل من يقرأ عن أعمال هذه العصور . وأكتفى بتناول جميع هؤلاء الأباطرة الذين تعاقبوا فى الإمبراطورية من ماركوس Marcus الفيلسوف حتى ماكسيمينوس Maxlminus ؛ وهؤلاء هم : ماركوس ، وولده كومودوس Commodus ، وبرتيناكس Pertinax ، وجوليانوس Julianus وسفيروس Severus ، وولده أنطونينوس Antoninus ، وولده كاراكلا Caracalla ، وماكرينوس Macrinus ، وهليوجابالوس Heliogabalus ، والاسكندر ، وماكسيمينوس Maximinus وأول ما يلاحظ أن أباطرة الرومان كان أمامهم صعوبة ثالثة وهى لزوم تحمل صرامة الجنود وجشعهم ، وهذا ما بلغ حدا أصبح فيه علة سقوط الكثيرين من الأباطرة ؛ فقد كان إرضاء الجنود والشعب معا أمرا غير مستطاع فى يسر ، بينما كان على الأمراء غير الأباطرة مناهضة مطامع الطبقة الأرستقراطية وشطط الشعب . لأن الشعب يحب الدعة ، وبالتالى يجب الأمراء المسالمين ، ولكن الجنود يؤثرون الأمير ذا الروح العسكرى

والأنفة ، الصارم الجشع ، ويرغبون فى أن يمارس هذه الخصال مع الشعب حتى يمكنهم أن يحصلوا على أجور مضاعفة ، ويجدوا متنفسا لجشعهم وصرامتهم . وهكذا حدث أن هلك على حد سواء أولئك الأباطرة الذين لم يعرف عنهم ما يمكنهم ، فطرة أو اكتسابا ، من المحافظة على ضبط الطرفين معا ، وأن العدد الكبير منهم - الذى ارتفع إلى الإمبراطورية وكان حديث عهد بها ، وعرف صعوبات هذين الميلين المتعارضين - اقتصر على إرضاء الجنود ، ولم يفكر فى الإساءة إلى الشعب إلا قليلا . وليس فى هذا الاختيار بد عندما يكون الأمراء غير قادرين على مجانبة مقت طرف من الطرفين فعليهم أولا أن يحاولوا ألا تمقتهم كتلة الشعب ، فإذا لم يستطيعوا انجاز ذلك فيجب أن يستخدموا كل وسيلة لكى يفروا من كراهية الطرف الأقوى . ولذا فإن هؤلاء الأباطرة الذين كانوا حديثى عهد ، ومن هنا كانوا فى حاجة إلى خطوات خاصة ، ناصروا الجنود أكثر من أن يناصروا الشعب . وتتوقف فائدة ذلك أو عدمها ، بحال ما ، على معرفة الأمير لكيفية المحافظة على شهرته الطيبة بينهم . وكانت نتيجة هذه الأسباب أن نهايات ماركوس وبرتيناكس والإسكندر كانت سيئة ، فقد كانوا جميعا متواضعين ، محبين للعدالة ، أعداء للصرامة ، أهل رقة ولطف ولقد عاش ماركوس وحده عزيزا ، ومات كريما ، لأنه بصعد إلى الإمبراطورية بحقه الوراثى ، ولم يكن الفضل فى ذلك يعود إلى الجيش أو إلى الشعب. وزيادة على ذلك،

كان يتحلى بكثير من القدرات التى جعلته موقرا ، وأبقى طوال حياته على الفريـقين كل فى مكانه لايتعـداه ، ولـم يكن مبـغضـا أو مزدرى أبدا . ولكن نصب برتيناكس إمـبراطورا بغير إرادة الجنود ، وهؤلاء وقـد ألفوا حياة الفوضى فى عهد كومودوس لم يسـتطيعوا أن يسايروا الحياة الشريفة التى أراد برتيناكس ألا يتجاوزوها ، ولذلك أصبح بغيضا . وإلى ذلك يضاف الازدراء لكبر سنه ، ومن هنا سرعان ما سقط فى أول إدارته .

ومن هنا يظهر أن الأعـمال الصالحـة تكسب الكراهية كـما يكسبـها الشر، ولذلك فـالغالب أن يضطر الأمـير الذى يريد أن يحـتفظ بالولاية إلى أن يقـترف الشـر ، كمـا سبق أن قلت ، لأنه حـينما يفـسد أحـد الأطراف ، سـواء الشعب أو الجـيش أو النبـلاء ، أيا كان من تعـتبـره ضروريا لك من أجل المحافظة على مركزك ، فيجب عليك أن تسير على هواه ، وتتبع رضاه ، وحـينذاك تؤذيك الأعمال الطيبـة . ولكن لنتحدث عن الإسكندر الذى كـانت له تلك الطيـبة حـتى قيل إن من بين الأمـور الأخرى التى يثنى عليه لها أنه لم يعدم فردا دون محاكمة عادلة فى السنين الأربع عشرة التى حكمها . ومع ذلك اعتبـر متخنثا ورجلا أجاز لأمة أن تسـيـطر عليـه ، وهكذا تـردى فى هـاوية الازدراء ، وتآمـر عليه الجـيش وقتله .

وحين ننظر بعين الاعـتبـار ، من ناحـيـة أخرى ، إلى خـصـال كومودوس ، وسفيروس وأنطونينوس ، وكارا كلا ، وماكسيمينوس ، نجد

أنهم كانوا قساة جشعين لأقصى حد ، ولم يكن ثمة إساءة لكيلا يفرضوها على الشعب حتى يرضوا الجنود ، وكانت خواتيمهم جميعاً سيئة ، ما خلا **سفيروس** . لقد كانت له ، على أية حال ، هذه القدرات التى مكنته من أن يحكم حكما سعيدا، بأن حافظ على الجنود أصدقاء له، على الرغم من أنه بطش بالشعب ، وذلك لأن قدراته جعلته أهلا لإعجاب الجنود والشعب معا ، حتى أصبح الشعب ، إلى حد ما ، دهشا مذهولا له ، بينما الجنود يجلونه وهم راضون .

ولما كانت أعمال هذا الحاكم عظيمة وجديرة بمراعاة أمير حديث العهد ، فإنى سأبين بإيجاز كيف أنه أجاد استخدام خصال الثعلب والأسد ، فلابد للحاكم من أن يقلد طبيعتيهما ، كما سبق أن قلت . لما كان **سفيروس** ، الذى كان قائد الجيش فى **سلافونيا** ، يعرف تراخى الإمبراطور جوليانوس ، فقد أقنع القوات بأن من الخير أن يذهبوا إلى روما للقصاص لمقتل برتيناكس الذى كان الحرس البريتورى قد قتله . وسار بجيشه إلى روما تحت ستار هذا الادعاء ، ودون أن يكشف عن طمعه فى العرش ، ووصل إلى إيطاليا قبل أن يعرف أنه قد تحرك إليها. وعند وصوله إلى روما انتخبه السناتو إمبراطورا بدافع الخوف ، وقتل جوليانوس . وبعد هذه البداية ، لم يبق بينه وبين السيطرة التامة على الإمبراطورية سوى مواجهة عقبتين ، واحدة فى آسيا حيث نجرينوس Nigrinus على رأس الجيوش الآسيوية وقد أعلن نفسه إمبراطورا ،

وأخرى فى الغرب حيث كان آلبينوس Albinus الذى طمع فى الإمبراطورية ولما كان يعد إظهار عدائه لهما معا أمراً خطرا قرر أن يخدع آلبينوس الذى كتب إليه برغبته فى أن يشاركه فخر اختيار السناتو له إمبراطورا ، وبعث إليه بلقب قيصر ، ونودى به شريكا لسفيروس بأن تداول السناتو الأمر . لقد حمل آلبينوس كافة هذه الأمور محمل الصدق . ولكن بعد أن هزم سفيروس نجرينوس وقتله ، وجعل الأمور تستتب فى الشرق ، رجع إلى روما ، وفى السناتو اتهم آلبينوس بأنه سعى غدرا إلى اغتياله ، دون أن يراعى النعم التى أخذها منه ، وقال إنه مضطر لذلك إلى أن يذهب إليه ويعاقبه على هذا الجحود . وحينئذ ذهب لملاقاته ، وهناك جرده من ولايته وحياته معا .

وكل من يفحص أعمال سفيروس فحصا مفصلا سيلفاه أسدا مفترسا ، وثعلبا ماكرا لأقصى حد ، وسيجده مهاباً جليلا عند الجميع ، ولا يبغضه الجيش ؛ ولن يعجب لقدرته ، وهو الأمير الحديث العهد ، على نيل سلطان كبير ، مادام ذكره العظيم حماه على الدوام من المقت الذى يمكن أن يولده جشعه فى نفوس الشعب . ولكن ولده أنطونينوس كان رجلا صاحب قدرة فائقة ، وخصال جعلته جديرا بإعجاب الشعب ، ومحبوبا كذلك من الجند ، لأنه كان رجل حرب ، وأهلا لأن يتحمل أشد الصعاب ، ينظر شذرا إلى تناول مالذ وطاب من الطعام ، ويستنكف من كل ترف آخر : وجميع هذه الخصال جعلت كافة الجيوش تحبه .

وعلى أى حال ، فإن وحشيته وقسوته كانتا عظيمتين جدا ، ولم يسمع بمثلهما أحد ، لأنه قد تسبب فى قتل عدد كبير من أهل آلساندرية Alessandria وأهل روما ، بعد أن أعدم كثيرا من الأفراد ، فأصبح كافة الناس يمقتونه ، ويخشاه أولئك الذين كانوا حوله ، حتى قتله قائد لفرقة من فرقة المائة وسط جيشه ، ومن هنا يجب أن يلاحظ أن هذا النوع من الموت الذى ينتج عن فعل متعمد لرجل وطد العزم عليه لايمكن أن يتقى الأمراء شره ، لأن كل من لا يخشى الموت لا يمكن أن يقدم على هذا الأمر . ولكن الأمير فى غنى عن الخوف الشديد منه ، لأن أمثال هؤلاء الرجال نادرون لأبعد حد ، وليس عليه سوى أن يحذر من أن يأتى أية إساءة جسيمة فى حق إنسان يستخدمها ضده ، أو فى حق الذين هم حوله فى خدمته ، كما فعل أنطونينوس الذى قتل أخا لقائد تلك الفرقة بوقاحة ، وكان يهدده كل يوم ، مع أنه كان يزال يحتفظ به فى حرسه ؛ ولقد كان فى عمله هذا بلاهة وخطورة كما أثبت الواقع .

ولكن لننتقل إلى كومودوس الذى كان فى مقدوره أن يحتفظ بالإمبراطورية فى يسر ، فقد كان وريثا لها ، لأنه ابن ماركوس . لقد كان من الممكن أن يكتفى باقتفاء أثر أبيه حتى يرضى الشعب والجنود معا ، ولكن وقد كانت ميوله صارمة وحشية عمل على مجاملة الجنود وفوضاهم ، حتى يستطيع أن يمارس جشعه مع الشعب . ومن ناحية أخرى ، أصبح حقيرا فى نظر الجنود من جراء عدم محافظته على

كـرامتـه ، وذلك بنزوله فى كـثيـر من الأحـيان إلـى الـساحـة لينازل المصـارعين ، ولأعـمـال مـشـينة أخـرى قـام بهـا لا تليـق بالكـرامـة الإمبـراطورية . ولما كان بغيـضا ، من ناحـية ، ومحـتقرا ، من ناحـية أخرى ، تآمروا عليه وقتلوه .

وتبقى خصال ماكسيمينوس لتصويرها . لقد كان رجل حرب لأقصى حد . ولما كـانت الجيوش قـد ضاقت ذرعا بتخنـث الإسكندر التى تحدثنا عنها منذ مدة وجيزة ، فقد انتخب بعد موته إمبراطورا . ولم ينعم بذلك طويلا ، لأن أمرين جـعلاه بغيضـا وحقيـرا . الأول ، أصله الوضيع ، فقد كان راعـيا فى تراقيا Thrace . وكان هذا مـعروفا لـكافة الناس ، وسببا لازدرائه فى جمـيع النواحى . والثانى ، أنه أجل عند بدء عهده ، الذهاب إلى روما لكى يـتبوأ العـرش الإمبراطورى ، واشـتهر بالصـرامة الشـديدة ، وقد اقـتـرف أعمـالا قاسـيـة عديدة بوسـاطة نواب حكامـه praefecti فى رومـا وفى أنحـاء الأمبـراطورية الأخـرى . ولذلك فـإن الإستياء من وضاعة أصله ، والمقت خوفـا من وحشيته ، دفعا الكافة إلى الخنـق عليه ، فتآمرت عليه أفـريقيا أولا ، ثم السناتو ، وجميع شعب رومـا وإيـطاليـا فـيمـا بعـد . وإلى هؤلاء انضم كـذلك جنـوده الذين غضبـوا لقسوته حين كانوا يحاصـرون أخيلية Aquileia وألفوا حصارها أمـرا عسيـرا ؛ وحين رأوا أن له أعداء كثـيرين جدا ، لم يخـشوه إلا قليلا ، وقتلوه .

ولن أطرق الحديث عن هليوجابالوسHeliogabalus ، وماكرينوس Macrinus ، وجوليانوس Julianus الذين بطش بهم بغتة وقد كانوا حقراء تماما ، ولكن سوف أختم هـذا المقال بأن أقول : إن أمراء عصرنا يلقون فى ولاياتهم صعوبة أقل بكثير من هؤلاء من حيث اضطرارهم فى حكمهم إلى إرضاء جنودهم لدرجة خارقة ، لأنه على الرغم من أنه يجب عليهم أن ينظروا إليهم بعين الاعتبار الخاص ، إلا أنه سرعان ما تسوى أية صعوبة ، لأنه ليس بين هؤلاء الأمراء من يملك جيوشا مرتبطة ارتباطا وثيقا بإدارة الحكم وحكم مقاطعاتهم كما كانت جيوش الإمبراطورية الرومانية . فإذا كان من الضرورى حينذاك أن يكون إرضاء الجنود أمرا أحرى بهم من إرضاء الشعب ، فما كان السبب سوى أن الجنود كانوا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من الشعب . والآن ، فيما خلا الأتراك ومماليك مصر ، إرضاء الشعب أكثر من الجنود ألزم للأمراء كافة لأن الشعب يستطيع أن يفعل أكثر من الجنود . وأستثنى سلطان الأتراك ، لأنه يحتفظ حوله دائما باثنى عشر ألف من المشاة ، وخمسة عشر ألف من الفرنسان ، وعلى هؤلاء تتوقف سلامة المملكة وقوتها . وكان من الضرورى له أن يؤجل أى اعتبار آخر حتى يحتفظ بهؤلاء أصدقاء له . وكذلك كانت الحال بالنسبة لمملكة المماليك ، فلما كانت بأسرها فى أيدى الجنود ، فالسلطان ملزم بأن يحتفظ بصداقتهم بغض النظر عن الشعب . وعلينا أن نلاحظ أن ولاية السلطان هذه تختلف عن

ولايات الأمراء الآخرين ، فهى تشبه ولاية البابا المسيحية التى لا يمكن أن نسميها مملكة وراثية ، أو مملكة حديثة العهد، لأن أبناء الأمير الراحل ليسوا ورثته ولكن خليفته فى الحكم هو من يقع عليه اختيار أصحاب النفوذ فيها . ولما كان هذا النظام قديما ، فلا يمكن أن نسميه مملكة حديثة العهد ، لأنه خلو من الصعاب التى توجد فى الإمارات الجديدة . وعلى الرغم من أن الأمير جديد ، إلا أن قواعد هذه الولاية قديمة ومنظمة حتى أنها تتلقاه كما لو كان هو سيدها الوراثى .

ولكن حين نرجع إلى موضوعنا أقول : إن كل من يدرس الحجة السابقة يرى أن أسباب سقوط الأباطرة الذين ذكرناهم كانت إما الكراهية أو الأزدراء، ويلاحظ كذلك كيف حدث أن بعضا منهم سار على نهج ، وسار الآخرون على نهج غيره ، وفى كلا المنهجين وُفق بعض ، ولم يوفق الآخرون . لقد كانت محاولة برتيناكس والإسكندر تقليد ماركوس محاولة بلا فائدة وضارة ، لأنهما معا أميران حديثا العهد ، وكان ماركوس أميرا وراثيا . وكان الحال كذلك بالنسبة إلى كارا كلا ، وكومودوس ، وماكسيمينوس - فقد كان تقليدهم سفيروس مضر لهم ، ماداموا لا يملكون القدرة الكافية لأن يقتفوا آثاره . وعلى ذلك لا يستطيع أمير حديث العهد أن يقلد أعمال ماركوس فى ولايته ، كما أن محاكاته لأعمال سفيروس غير ضرورية له، ولكن عليه أن يأخذ عن سفيروس تلك الأمور الضرورية لتأسيس ولايته ، وعن ماركوس ما يفيده ويمجده ليحفظ ولاية قد تم قيامها وسلمت .

الباب العشرون
فيما إذا كانت القلاع والأمور الأخرى التى غالبا ما يلوذ بها الأمراء مفيدة أم ضارة

لقـد ذهب بعض الأمراء من أجل سـلامة حـكم ممتلكاتهم إلى نزع السـالح من مواطنيهم ، وحـافظ غيرهم على البلاد التابعة ل مـقسمة إلى أجزاء ، ومنهم من أثاروا العداوات فيـما بينها ، ومنهم من سعى إلى أن يكسب فى جانبه أولئك الذين ارتابوا فى أمـرهم عند بدء حكمهم ، وفئة شيـدت القلاع ، وأخرى دكتـها وهدمتهـا . ومع أن المرء لا يستطيع أن يقضى بحكم محدد بصـدد هذه الأمور دون أن يدخل فى تفاصيل الولاية التى سـيطبق عليا مـثل هذا الحكم ، إلا أننى سوف أتحـدث عنها بـهذه الطريقة العامة كما يتيح الموضوع .

لم يعرف أبدا أمير جديد نزع السلاح من رعاياه، بل على العكس ، كان يسلحـهم دائما حين يجدهم عزلا ، لأنك حين تسلحـهم تصبح هذه الأسلحـة لك خاصـة ، ويخلص لك أولئك الذين ارتبت فى أمـرهم ، ويظل من كانوا مـخلصين كما هم ، ويصـبح من كانوا مجـرد رعايا لك أنصارا ولما كان تسليح الـرعية بأسرها غير ممـكن ، فإنك حين تمنح مزايا

حمل السلاح لبعض منها تستطيع أن تعامل سواهم معامل أسلم ؛ ومن شأن هذا الاختلاف فى المعاملة - الذى يعرفونه - أن يجعل رجالك أكثر عرفانا بجميلك . أما سواهم فسوف يعذرونك عندما يذهبون إلى أن أولئك الذين عليهم واجبات أهم وعندهم أخطار أكبر هم الذين يقدرون بالضرورة تقديرا أعظم . ولكن حين تنزع السلاح منهم فإنك تأخذ فى الإساءة إليهم ، وتبدو أنك لا تثق بهم ، إما لأنهم جبناء ، أو لعوز فى الثقة بهم ، وكلا هذين الرأيين يولد كراهيتك فى نفوسهم. ولما كنت لا تستطيع أن تبقى أعزلا ، فإنك مضطر إلى أن تلجأ إلى الجندية المأجورة التى سبق أن قررنا قيمتها . وحتى لو فرضنا أنها صالحة ، فلا يمكن أن تكفى عددا لأن تدافع عنك ضد الأعداء الأقوياء ، وضد رعاياك المشكوك فيهم ، ولذلك فإن رعايا الأمير الجديد فى ملك جديد يكونون دائما مسلحين، عند الاستيلاء عليه ، كما قلت، والتاريخ حافل بأمثلة لذلك .

لكن حين يكسب أمير ولاية جديدة يلحقها بولايته القديمة ، فمن الضرورى ، حينئذ ، أن ينزع السلاح من تلك الولاية فيما عدا أولئك الذين وقفوا بجانبه عند الاستيلاء عليها ؛ وحتى هؤلاء يجب على الأمير حين تلوح الفرصة ، وفى الزمن المناسب ، أن يجعلهم ضعفاء متخنثين ، وأن يهيئ الأمور حتى تكون جميع أسلحة الولاية الجديدة فى أيدى جنوده الذين يعيشون بالقرب منه فى ولايته القديمة .

إن أجدادنا وأولئك الذين اعتبروا حكماء اعتادوا أن يقولوا : لزمت الكتل السياسية وسيلة للسيطرة على بستويا Pistoia ، والقلاع وسيلة للسيطرة على بيزا ؛ ومن أجل هذا الغرض أثاروا الخلافات فى بعض المدن التابعة لهم حتى يستطيعوا ملكها بيسر . إن هذا الأمر كان عملا صالحا بلا ريب فى تلك الأيام حينما كان فى إيطاليا توازى للقوى ، ولكن يبدو لى أنه ليس بفكرة صالحة للوقت الحاضر ؛ لأنى لا أعتقد أن الأحزاب التى توجد بهذه الصورة تأتى بأية فائدة ، بل على العكس ، فمن المؤكد أن تضيع فى الحال هذه المدن المنقسمة بهذه الكيفية عندما يدنو العدو ، لأن الكتلة الحزبية الضعيفة تنضم دائما إلى جانب العدو ، وغيرها لن يستطيع البقاء .

وأعتقد أن البنادقة، تدفعهم هذه الدوافع التى ذكرت، أثاروا الفرقة فى المدن الخاضعة لهم بين كتلتى الجولفيين Guelf والجبلينيين Ghibelline . ومع أنهم لم يتيحوا لهم أن يصلوا إلى حد إراقة الدماء إلا أنهم شجعوا هذه الخلافات ، حتى أن أبناء هذه المدن حين ينشغلون بخصوماتهم الخاصة لا يعملون ضد البنادقة . وعلى كل حال ، فإنهم لم يجنوا أية فائدة من وراء ذلك ، كما شاهدنا عندما قامت فئة من أولئك المواطنين بغتة واستبسلت واستولت على الولاية ، وذلك بعد الهزيمة فى ڤايلا . ومثل هذه الطرائق ، فضلا عن ذلك ، تدعو إلى الظن بقوة الأمير ، لأن هذه الفرقة لن تتاح أبدا فى حكم قوى . هى مفيدة فقط فى زمن السلم ،

لأنه يسهل على الأمـير بهذه الوسيلة أن يحكم رعيـته ، ولكن حين تأتى الحرب تضح مغالطة مثل هذه السياسة فى الحال .

ولاريب فى أن الأمـراء الذين يتـغلبون على الصـعـاب والمعارضـة يصبـحون عظمـاء ؛ ولذا فإن الحظ - وخاصـة إذا أراد أن يجعل أمـيرا جديدا عظيمـا ، وهو فى أمس الحاجة إلى نيل الشهـرة من أمير وراثى - يثير الأعـداء ، فيضطر الأمير إلى أن يشن حـروبا ضدهم ، حتى يكون لديه سب للتغلب عليهم ، وبذلك يصـعد إلى أعلى بوساطة ذلك السلم الذى قد جلبه أعـداؤه له . إن هناك كثيرين يظنـون ، لهذا السبب ، أن الأمير العـاقل ينبغى له ، حين تواتيه الفرصة ، أن يثـير العداوة بدهاء ، حتى يزيد بقمعها من عظمة نفسه .

إن الأمراء ، وخاصة المحـدثين منهم ، قد وجدوا فى أولئك الرجال الذين نظروا إليهم بعين الإرتياب فى أول عهـدهم بالسلطان إخلاصا أكثر وفائدة أكبر مما وجدوا فى أولئك الذين كانوا موضع ثقتهم بادئ الأمر . إن باندولفوبتروتشى Pandolfo Petrucci أميـر سيينا قـد حكم ولايته بمن ارتاب فيهم أكثر مما حكمها بغيرهم . ولكنا لا نستطيع أن نطنب فى الحديث فى هذا حيث أنه استطـراد فى الموضوع . ولن أقول سوى أنه لو كان هؤلاء الرجال الذين كانوا أعـداء عند قيام حكم جديد من النوع الذى يحتاج إلى سند للمـحافظة على مركزه ، فإن الأمـير يتسنى له أن يكسب جانبـهم بسهـولة جدا ؛ وهم أشد اضطرارا من غـيرهم إلى أن يخـدموه

بإخلاص ، لأنهم يعلمون أن من واجبهم أن يبطلوا بأعمالهم الرأى السئ للأمير فيهم ، والذى سبق أن كونه عنهم . وهكذا سوف يستخلص الأمير منهم دائما مساعدة أعظم من التى تعود عليه من أولئك الذين يهملون مصالحه وهم يخدمونه ، لأنهم أكثر اطمئنانا إليه من غيرهم .

ولكنى لن أغفل عن ذكر الأمير الذى أخذ ولاية جديدة بفضل معونة سرية تلقاها من سكانها ، مادام الموضوع يتطلب ذلك ، وأقول : عليه أن ينظر جيدا بعين الأعتبار إلى الاعتبار إلى الدوافع التى ساقت أولئك الذين آثروه بذلك ، فإذا لم تكن هى الحب الطبيعى له، بل كانت فقط تبرمهم من الولاية كما كانت ، فإنه سيجد عناء عظيما وصعوبة كبيرة لكى يحتفظ بصداقتهم ، لأن إرضاءه لهم من المستحيل .

وحين نفحص علة ذلك فى الأمثلة التى نستخلصها من الأزمنة الحديثة والقديمة نرى أن كسب صداقة أولئك الذين كانوا راضين عن الوضع القديم ، ومن هنا كانوا أعداء لنا عند بدء العهد الجديد ، أسهل بكثير من كسب صداقة أولئك الذين أصبحوا أصدقاء للأمير وساعدوه على احتلالها لأنهم كانوا ساخطين على العهد القديم .

لقد كان من عادة الأمراء لكى يستطيعوا السيطرة على ولايتهم فى سلام أن يقيموا القلاع حتى تكون بمثابة حكمة وشكيمة[1] لأولئك الذين

---

(١) الحكمة (بفتح الحاء والكاف والميم) سيور تحيط برأس الفرس لقيادته والسيطرة عليه ، والشكيمة هى الحديدة المعترضة فمه (المترجم) .

يبيتون لهم شرا ، ولتكون لهم ملجأ أمينا ضد الهجوم المباغت . إننى أوافق على هذه الطريقة لأنها استخدمت قديما . ومع ذلك فقد رأينا نيقولا فيتللى يهدم فى عصرنا قلعتين فى شيتا دى كاسنللو Cittá di Castillo لكى يحتفظ بهذه الولاية ، وجيدو بالدو Guid' Ubaldo دوق أوربينو يدك كافة الحصون فى ممتلكاته التى كان قيصر بورجا قد طرده منها ، وذلك حين رجع إليها ورأى أن ضياع ولايته مرة أخرى أصعب بدونها منه بها . وعند العودة إلى بولونيا اتخذ آل بنتيفولى مثل هذه الإجراءات . ولذلك فإن فائدة القلاع تتوقف على العصور التى توجد فيها ، فهى إن صلحت من ناحية ، أضرت من ناحية أخرى . وعلى ذلك ، يمكن مناقشة المشكلة بهذه الصورة : ينبغى للأمير الذى يخاف شعبه أكثر مما يخاف الأجانب أن يشيد القلاع ، ولكن على من يخشى الأجانب أكثر مما يخشى الشعب أن يعمل بدونها . إن قلعة ميلانو التى بناها فرنتشسكو سفورتسا قد قدمت ، وسوف تقدم ، لبيت سفورتسا متاعب دونها أى اضطراب آخر فى تلك الولاية . ولذلك فإن خير الحصون جميعاً هو ما يؤسس على حب الشعب للأمير . فعلى الرغم من أنك قد تملك القلاع ، فإنها لن تنقذك إذا كان الشعب يبغضك . فعندها يشهر السلاح عليك ، فلن تكون ثمة حاجة له إلى الأجانب ليساعدوه . إننا لا نرى فى أيامنا أن القلاع أفادت أى حاكم سوى كونتيسة فورلى Forli حين قتل زوجها الكونت جيرولامو Girolamo . إنها استطاعت بفضل قلعتها أن تفر من قومة الشعب ، وأن تنتظر المعونة من ميلانو ،

وأن تستعيد الولاية . لقد كانت الظروف حينذاك على حالة لا تمكن أجنبيا من أن يمد إلى الشعب يد المساعدة ، ولكن الكونتيسة لم تجن منها فيما بعد فائدة كبيرة حين هاجمها قيصر بورجا وكان الشعب يعاديها ، وتحالف مع الأجنبى . لقد كان الأسلم للكونتيسة من ملك القلاع ألا تكون موضع كراهية الشعب . ولهذا السبب فإنى أثنى على من يقيم القلاع كما أثنى على من لا يقيمها ، وألوم أى إنسان يستوثق من القلاع ولا يهتم كثيرا بكراهية الشعب له .

الباب الحادى والعشرون
كيف ينبغى لأمير أن يسلك لينال الشهرة

لا شئ أدعى إلى احترام أمير احتراما جد كبير مثل الأعمال العظيمة ، والخارقة عامة . ولدينا مثال لذلك فى عصرنا هو فرديناند ملك آراجون ، وملك أسبانيا الحالى . ويمكن أن نطلق عليه أميرا حديث العهد ، لأنه أصبح أول ملك فى العالم المسيحى بعد أن كان ملكا ضعيفا ، وذلك لما أصاب من شهرة ومجد . وإذا نظرت إلى أعماله فسوف تجدها جميعا عظيمة جدا ، وتلقى بعضها خارقا للعادة لقد هجم على غرناطة فى أول عهده ، وكانت تلك الحملة دعامة مجده . وقام

بذلك أولا وهو خلى البال ، ودون أن يخشى تدخلا من أحد ، وجعل عقول البارونات في كاستيل تنشغل بهذه الحملة ، حتى أنهم حين كانوا يفكرون فيها لم يدر بخلدهم تجديد الأوضاع السياسية . وهكذا نال شهرة وسلطانا عليهم دون أن يتنبهوا إلى ذلك . لقد استطاع بمال الكنيسة والشعب أن يصون جيوشه ، وبتلك الحرب الطويلة أن يضع أسس قوته العسكرية التى جعلته مشهورا فيما بعد . وبالإضافة إلى ذلك ، لجأ إلى الضراوة الدينية حتى يستطيع أن يقوم بحملات أعظم من الحملة السابقة ، وطرد المغاربة من مملكته واجتثهم منها ، وذلك تحت ستار الدين دائما ؛ وهو فى الحقيقة مثل سياسى فذ . ووراء نفس الستار أيضا هاجم أفريقيا ، وقام بحملته فى إيطاليا ، وهجم على فرنسا فيما بعد ؛ حتى أنه كان يبتكر باستمرار عظائم الأمور التى جعلت رعاياه لا يقر لهم قرار وفى حيرة من أمره ومشغولين بملاحظة النتائج . لقد كانت هذه الأعمال ينبثق الواحد منها من الآخر ، فلم تدع أبدا فرصة للناس لكى يقر قرارهم ويعملوا ضده .

ومما يفيد الأمير فائدة جلى أن يضرب بعض الأمثلة البارزة لعظمته فى الإدارة الداخلية ، كتلك التى تنسب إلى برنابو الميلانى . ففى الحياة المدنية يجب على الأمير أن يجد تلك الوسيلة للثواب أو العقاب التى يكثر الحديث عنها ، وذلك حين يقوم فرد ما بعمل خارق ، سواء أكان خيرا أم شرا . وعليه أن يسعى فى كل عمل ، أولا وقبل كل شئ ، إلى أن يكسب لنفسه الاشتهار بالعظمة والامتياز .

ويجل الأمير إجلالا أكبر حين يكون صديقا صدوقا ، أو عدوا لدودا ، أى حينما يعلن دون تحفظ تأييده لفرد من الأفراد ، أو عداءه له . إن هذه السياسة دائما أكثر نفعا من أن يظل على الحياد ، لأنه إذا أخذت فى القتال دولتان متجاورتان فهما إما دولتان يخشى انتصار المنتصرة منهما ، أو غير ذلك . وفى أى من هاتين الحالتين يحسن بك أن تفصح عن موقفك وتعلن الحرب ، لأنه إذا لم تفصح عن موقفك فى الحالة الأولى فسوف تقع فريسة للمنتصر منهما ، وذلك يطيب للدولة التى غلبت ويرضيها ، ولن يكون عندك سبب لموقفك ، أو لديك ما تدافع به عن نفسك . ولن يلقاك أحد ، لأن كل منتصر لن يبغى أصدقاء يرتاب فيهم ، ولم يمدوا إليه يد المساعدة وقت الشدة . وكل مغلوب لن يلقاك ، لأنك لم تشهر السلاح وتخاطر بنفسك فى قضيته .

لقد أرسل الإيتوليون أنتيوكس إلى بلاد الإغريق لطرد الرومانيين منها ؛ وأرسلوا الخطباء إلى الآخيين الذين كانوا أصدقاء الرومانيين ليشجعوهم على أن يظلوا على الحياد . ومن ناحية أخرى ، استمالهم الرومانيون إلى أن يحملوا السلاح بجانبهم وعرض الأمر على مجلس الآخيين للتداول فيه ، حيث سعى سفير أنتيوكس إلى أن يستميلهم إلى البقاء على الحياد ، ورد السفير الرومانى على ذلك قائلا : «أما ما يقال إنه خير الأمور لدولتكم وأكثرها فائدة لها ، فلا شئ أبعد منه عن الحقيقة ؛ لأنكم إذا لم تتدخلوا فى الحرب فستصبحون فريسة للمنتصر فيها ، ولا فضل لكم أى فضل ، ودون أن تنالوا أى ذكر» .

وما يحدث دواما هو أن يبغى منك أن تظل على الحياد من لا يكون صديقا لك أو حليفا ، ويطلب منك من يكون صديقك أن تفصح عن موقفك بأن تشهر السلاح . ويسلك عادة ضعاف العزيمة من الأمراء طريق الحياد لكى يتحاشوا الأخطار القائمة ، وغالبا ما يدمرهم هذا النهج . ولكن حين يعرب الأمير بصراحة عن موقفه ويؤيد أحد الطرفين فإنه إذا انتصر من انضممت إليه ، حتى ولو كان قويا وبقيت تحت مشيئته ، فإنه يدين لك بالمعروف ، وتكون صداقة بينكما قد قامت . ولا يصل عدم الأمانة بالرجال أبدا إلى حد أن يبطشوا بك أنت من أحسنت إليهم . وفضلا عن ذلك ، فإن النصر يندر أن يتم بصورة تجعل المنتصر فى حالة ينقض فيها جميع نواميس الخير ، وخاصة بالنسبة للعدالة . ولكن إذا هزم حليفك فإنك تلوذ به وسوف يساعدك طالما يقدر على ذلك ، وتصبحان رفيقين فى طالع واحد قد يصعد من جديد . وفى الحالة الثانية ، حينما يكون هذان المتحاربان ممن لا تخشى أنت المنتصر منهما من أية ناحية ، فما يزال الأحكم بالنسبة إليك أن تنضم إلى واحد منهما ، لأنك تسير إلى هلاك أحدهما بمساعدة من كان ينبغى له أن ينقذه لو كان عاقلا ؛ فإذا انتصر فإنه يظل تحت مشيئتك ، ومن المستحيل ألا ينتصر بمساعدتك .

وهنا ينبغى لنا أن نلاحظ أن واجب الأمير أن يحذر دائما أن يتحالف مع من هو أقوى منه لكى يعتدى على غيره ، إلا إذا حملته

الضرورة على ذلك ، كما سبق القــول ؛ لأنه إذا ظفر بالنصر فيظل تحت سلطانه ، وواجب الأمراء أن يتحاشوا ما وسعهم الأمر ، أن يكونوا تحت مشيئة غيرهم وإرادته . لقد اتحد البنادقة مع فرنسا ضد دوق ميلانو مع أنه كان فى المسـتطاع أن يتجنبوا ذلــك التحالف الذى أفـضـى إلى دمارهم . ولكن عندمـا لا يستطـيع الأميـر مجـانبـة ذلك ، كمـا حدث فى حـالة الفلورنسيين حين ذهب البابا وأسـبانيا بجيوشهمـا للهجوم على لمبارديا ، فينبغـى للأمير حينئذ أن يتـحالف للأسباب التى سـبق ذكرها . ولا تدع حكومة تعتقد أنها تستطيع على الدوام أن تسير على سياسة سليمة واحدة، فالأولى بنا أن ندعها تعتقد أن جميع السياسات مشكوك فيها . ونجد هذا الأمر فى طبيعــة الأشياء ؛ فإن الإنسان لا يحاول أبدا أن يتـجنب صعوبة دون أن يرتطم بغـيرها ؛ ولكن الحكمــة فى أن تكون قادرا عــلى معــرفة طبيعة الصعاب ، وتعتبر الصالح منها أقلها ضررا .

وعلى الأمير أيضـا أن يكرم المواهب ، وأن يؤثر القادرين ، ويحمى من يبرزون فى كل فن . وفضلا عن ذلك ، فواجبه أن يستنهض مواطنيه على ممارسة أعمالهم مطمئنى البــال ، سواء فى التجارة ، أو الزراعة ، أو فى أية صنعة أخرى يعمل الناس بهـا ، حتى لا يحنجم هذا عن تحسين ما بين يديه خوفا من أن يؤخذ منه، أو يخـشي ذاك الشروع في صنعة خوفا من الضرائب ؛ ولكن ينبغى أن يكافئ كل من يقوم بهذه الأمور ، وكل من يسعى بأية طريقة إلى تحسين حال مـدينته أو ولايته . وبالإضافة إلى

ذلك ، ينبغي له أن يلهى الشعب بالمهرجانات والمعارض في مواسم السنة المناسبة . ولما كانت كل مدينة تنقسم إما إلى نقابات طائفية أو إلى قبائل فينبغي له ألا يغض النظر عن كافة هذه الجماعات ، ويختلط بها من وقت لآخر ، ويجعل لهم من نفسه مثلا للإنسانية والكرم العظيم ، ودون أن ينزل أبدا ومهما كان الأمر عن مستوى جلال كرامته ، وهذا ما يجب ألا يجيزه أبدا في أي أمر من الأمور .

الباب الثاني والعشرون
في أمناء الأمراء

إن اختيار أمناء أمير ليس بأمر قليل الأهمية ؛ فالأمناء إما صالحون وإما غير صالحين تبعا لحجا الأمير . ويحصل المرء على أول انطباع عن حاكم وعقله حين يرى الرجال الذين حوله . فعندما يكونون قادرين ومخلصين يمكنه دائما أن يعتبر الأمير عاقلا ، لأنه استطاع أن يتعرف ما قدره أمنائه ، وأن يحتفظ بهم مخلصين . ولكن عندما يكونون على العكس من ذلك يستطيع المرء دائما أن يكون عن الأمير رأيا غير مقبول ، لأن أول خطأ له يكون في هذا الاختيار .

وما من إنسان عرف أنطونيو دافنافرو Antonio da Venafro كوزير لباند ولفوبتروتشى أمير سيينا إلا واعتبر باندولفو رجلا جد حكيم ، لأن أنطونيو أمينه . وللرجال ثلاثة عقول مختلفة : الأول ، يفهم الأمور دون معونة سواه . والثانى ، يفهمها حين يبينها غيره له . والثالث ، لا يفهمها بمفرده ولا بشرح سواه إن النوع الأول أكثر الثلاثة امتيازا ، والثانى ممتاز أيضا ، ولكن الثالث عديم الفائدة . ولذا يتضح أنه إذا لم يكن باندولفو من النوع الأول ، فهو على أية حال من النوع الثانى ؛ لأن للأمير دائما أن يحكم على معرفة الخير والشر اللذين يفعلهما إنسان أو ينطق بهما ، حتى ولو لم يكن الأمير صاحب أصالة عقلية ، بيد أنه يستطيع أن يعرف أعمال أمينه السيئة والصالحة ، ويصحح الأولى ، ويشجع على الأخرى . ولما كان الأمين لا يستطيع أن يأمل فى خداع الأمير ، فهو لذلك يظل صالحاً .

ولكى يتسنى للأمير أن يعرف وزيرا فثمة هذه الطريقة التى لا تخفق أبدا . عندما ترى الوزير يفكر فى نفسه أكثر مما يفكر فيك ، ويبحث عن مصلحته الخاصة فى جميع اعماله ، فلن يكون مثل هذا الرجل وزيرا صالحا ، ولا يمكنك الاعتماد عليه ؛ لأن واجب من فى يده مقاليد أمور ولاية غيره ألا يفكر فى نفسه أبدا ، بل عليه أن يفكر فى الأمير بمفرده ، وألا يعبأ بأى شئ سوى ما يخص الأمير . ومن ناحية أخرى ، ينبغى للأمير لكى يصون وفاء أمينه أن يفكر فيه ، ويكرمه ويثريه ، ويعطف

عليه ، ويمنحه رتب الشرف ، ويوليه الأعمال ذات المسئولية ، حتى يجعله لشرف والثراء العظيمان اللذان قد منحا له لا يرغب فى غيرهما ، وتجعله لسلطات العامـة التى لا يتولاها يخشى التغييرات السياسـية . ويستطيع لأمراء وأمنـاؤهم أن يعولوا على بعـضهم بعـضا حـتى تظل بينهم هذه لعلاقة ، وعندما تكون غـير ذلك فالنتيجة ضـارة دائما لأى منهما ، سواء ذا أم ذاك .

الباب الثالث والعشرون
كيف يجب المفر من المتملقين

ويجب ألا أغفل عن موضوع مهم ، وأن أذكر خطأ الأمراء الذى لا يستطيعون مجانبـته بغير صـعـوبة ، إلا إذا كانوا على درجة كبـيرة من الحكمة ، أو لم يسيـئوا الاختيار ، وهذا الموضوع هو مـا يتعلق بالمتملقين الذين يحـفل بهم كل بلاط ؛ لأن الناس يبـتهـجون لأمـورهم الخاصـة ويخدعـون بها أنفـسهم ، حـتى أنهم لا يسـتطيعـون أن يتقوا شـر هذا الطاعون إلا بصعـوبة . وحين يرغبون فى اتقائه يخاطرون باحـترامهم ، ويصحبون أزرياء ، لأنه لا توجد طريقة أخرى ليقى المرء نفسه شر التملق سوى أن يذر الناس يفهـمون أن قولهم الحقيقـة لن يؤذيه . ولكنك تفقد

احترامهم لك حينما يستطيع كل إنسان أن يخبرك بها . ولذا يجب على الأمير الحكيم أن ينهج على طريقة ثالثة ، وهى أن يختار لنصحه رجالا حكماء ، ويعطى لهؤلاء بمفردهم الحرية التامة لكى يذكروا له الحقيقة فيما يتصل بتلك الأمور التى يسأل عنها فقط ، ولا شئ سواها . ولكن عليه أن يسألهم عن كل شئ ، ويسمع لرأيهم ، ثم يتداول الأمر مع نفسه على طريقته الخاصة ، ويوافق هذه المجالس مجتمعة ، وكلا من هؤلاء الرجال على انفراد حتى يستطيع كل منهم أن يرى أنه كلما كان حرا فى الرأى كان أكثر قبولا عند الأمير . وينبغى له ألا يستمع إلى غير هؤلاء ، وأن يأخذ فى العمل بأناة وتفكير ، وأن يكون فى قراراته حازما . وكل من يفعل غير ذلك فإما أن التملق يفضى به إلى أن يعمل فى عجلة ، أو أنه لا يقر له قرار أبدا لتباين الآراء ؛ والنتيجة أن يفقده ذلك كل اعتبار .

وسوف أضرب لذلك مثلا حديثا . قال القسيس لوقا Luca مندوب مكسميليان الإمبراطور الحالى عن جلالته وهو يتحدث عنه : إنه لم يستشر أحدا أبدا ، إلا أنه لم يفعل بتاتا أى شئ كما يرغب . وهذا يرد إلى اتباعه منهجا عكس ما سبق ذكره فلما كان الإمبراطور رجلا كتوما ، فهو لم يصرح بنياته لأحد ، ولم يسمع لأية نصيحة ، ولكن كان أولئك الذين حوله يعارضونها حين يأخذون فى معرفتها عند التنفيذ ويكشف عنها الغطاء ، فينحرف الإمبراطور فى يسر عن غرضه . ومن هنا يحدث

أن ما يفعله اليوم لا يفعله غدا ، ولا يدرك إنسان أبدا ما يريد أن يفعله ، ولا ما يقصده ، ولا يركن أحد إلى قراراته .

ولذلك ينبغـي للأمـير أن يستـشير دائـمـا ، ولكن عندما يريد هو فقط ، لا عندما يريـد غيره . كما ينبغي له ، على العكس مـن ذلك ، أن يثـبط تماما عـزم من يحاول أن يقـدم إليه المشـورة ، إلا إذا طلب هو ذلك . وينبغي له أن يكون سائلا عظيمـا ، ومستمعا متأنيـا لحقيقة تلك الأمـور التى قد سـأل عنها ، وأن يغـضب بالفـعل حين يجد أن إنسـانا أحجم لأمر مـا عن ذكر الحقيـقة بكلها وكليلها ، وهو يخـبره بها . إن بعض الناس مـخدوع من غـير شك حين يظن أن الأمـير الذين يـشتـهر بالحكمة لا يعتبر حكيما لطبـيعته هو ، ولكن ذلك يرجع إلى المستشارين حوله ؛ لأن القـاعدة الصادقة هى أنه لا يمكن نصح أمـير هو نفسـه غير حكيم ، إلا إذا اتفق أن تخلى عن نفسه تمامـا بين يدى رجل يسيطر عليه فى كافة الأمور ، وحدث أن كـان هذا رجلا جد حكيم . وفى هذه الحالة فلا شك فى أن يحكمـه حكما صالحـا ، ولكن هذا لا يطول أمده ، لأن هذا الحاكم سـيجرده من الولاية . ولكن إذا أخـذ المشورة من عدد كبـير فـلن يسـتطيع التوفـيق بين آرائهم المتبـاينة ما دام غـير حكيـم ، وسوف يفكرون جميـعا فـى مصالحهم الخـاصة ، وسيعجـز هو عن تقويمهم أو فهمهم . ولا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك ، لأن الناس سوف يغشونك دائما إلا إذا أرغمتهم الضـرورة على أن يصدقوك . ولهذا يجب أن تكون

النتيجة هى : الواجب أن تعزى النصائح الحكيمة لأى ناصح كان إلى حكمة الأمير ، لا أن ترد حكمة الأمير إلى النصائح الصالحة التى يتلقاها .

الباب الرابع والعشرون
لماذا أضاع أمراء إيطاليا ولاياتهم

ولو روعيت الأمور التى سبق ذكرها مراعاة حكيمة فإنها تجعل الأمير الجديد يبدو وكأنه قديم فى الحكم ، كما يصبح فى الحال أكثر سلامة وثباتا فى الولاية مما لو كان قد قام فيها منذ زمن بعيد . لأن الأبصار تتطلع إلى أعمال الأمير الجديد أكثر من تطلعها إلى أعمال الأمير الوراثى ، وحين تعتبر هذه أعمال قدرة يكثر أنصاره ، ويرتبطون به ارتباطاً أوثق مما لو كان حاكما قديما . لأن الأمور الحاضرة تجذب انتباه الناس أكثر من الأمور الماضية ، وحين يجدون حالتهم الراهنة طيبة ينعمون بها ولا يبحثون عن سواها ، وعلى العكس من ذلك ، سوف يبذلون ما فى وسعهم للدفاع عن الأمير طالما لا يظهر نقصا فى أمور أخرى . وهكذا ينال مجدا مضاعفا : مجد إرساء أسس عهد جديد ، ومجد تحسينه بالقوانين الصالحة ، والأسلحة الصالحة ، والأصدقاء الصالحين ، والمثل

الصالحة . كمـا أن من يولد أميرا ويفقد عرشه بسبب افـتقاره إلى الحكمة يكون عاره عارين .

وإذا نظر المرء بعين الاعتبـار إلى أولئك الحكام الذين فقدوا ولاياتهم فى إيطاليـا فى أيامنا ، مثل ملك نابـولى ، ودوق ميـلانو وغيرهـما ، فـسوف يجـد أولا نقـصا عـامـا فـى أسلحتـهم للأسـباب التى ناقـشناه بالتفصـيل ، ويلاحظ حينئذ أن بعـضهم إما أن شعبـه يعاديه أو إذا لم يكن الأمر كذلك ، فإنهم لم يستطيعوا أن يستوثقوا من النبلاء لأنه بدون هذه النقائص لا تضيع الولايات التـى لها قوة كافية تمكنهـا من أن تحتفظ بجيش فى الميدان . إن فيليب المقدونى ، لا فيليب أبو الإسكندر الأكبر ، بل الذى هزمه تيتوس كونتيوس Titus Quintius لم تكن له دولة عظيمة تقارن بعظمة روما وبلاد الإغريق التى شنت عليه هجوما عنيفاً ، ولكن ، وقد كـان رجل حرب ، وإنسـانا يعرف كـيف يحظى بنصرة الـشعب ، وكيف يأمن جانب علية القوم ، استطاع أن يسـتمر فى الحرب ضد أعدائه سنين طويلة . وإذا كان قـد فقد سلطانه على بعض المدن فى نهـاية الأمر فإنه ظل قادرا على الاحتفاظ بمملكته .

ولذلك يجب عـلى من سـيطروا من أمـــرائنا على ممتلكـاتهم سنين طويلة ألا يتهموا الحظ ، ولكن الأحرى بهم أن يتهموا إهمالهم لأنهم فى الأوقات الهـادئة لـم يحسبـوا أبدا حسابا لتقـلب الأمور ، (شأن نقيـصه البشر عـامـة ألا يحسبوا حساب العـواصف فى الطقس المعتدل) . وحـين

قلب الدهر لهم ظهـر المجن لم يفكروا إلا فى الفرار بدلا من الـدفاع عن أنفسـهم ، وكان أملهم أن يستـدعيهم الشـعب حين يستـاء من غطرسة الغزاة . إن هذا الإجـراء صالح عندما يـعوزهم غيـره ، ولكن من أسوأ الأمور جدا أن نهمل الأدواء الأخـرى من أجل هذا الإجراء ، لأنه ما من أحد يرغب فى السقوط اعتقـادا منه أنه قد يجد من يأخذ بيده . هذا الأمر قد يحدث وقد لا يحـدث ، وإذا حدث فلن يقدم إليك الطمأنينة ، لأنك لم تساعـد نفسك بنفـسك ، ولكن قدمت إليك المسـاعدة كمـا تقدم إلى جبـان . إن أساليب الدفاع الوحيـدة الصالحة ، والأكيـدة والدائمة ، هى تلك التى تتوقف عليك أنت بمفردك ، وعلى قدرتك الخاصة .

الباب الخامس والعشرون
القدر الذى يقوم به الحظ فى الأمور البشرية
وكيف يمكن التصدى له

إننى أعـرف كم من الكُتـاب يرى ، ومـا زال ، أن الحظ والله يسـيطران على حوادث هذا العـالم ، حتى أن البـشر لا يسـتطيـعون أن يغيروها ، وأنه ، على العكس من ذلك ، لا عـلاج لها أيا كان ، ولذا يحكمون بأن الكد كثيرا فيها غير مفيد، ولكن لنذر الصدفة تحكم الأمور.

ولقد زادت فى يومنا درجة تأييد هذا الرأى بسبب ما رأوه ، وما يزال يرى كل يوم ، من التغييرات الكبيرة التى وراء كل حدس إنسانى . وحين أفكر فيها فإنى أميل فى بعض الأحيان إلى المشاركة فى هذا الرأى إلى حد ما . ومع ذلك ، فلكيلا نقضى نهائيا على إرادتنا قضاء مبرما أرى أنه قد يكون من الصواب أن الحظ حكم لنصف أعمالنا، وأنه يتيح لنا أن نحكم النصف الآخر أو ما يقرب منه . وأشبه الحظ بنهر قوى التيار ، سريع الجريان ، وحين يهيج ويموج يفيض على السهول ، ويقتلع الأشجار ، ويهدم الأبنية ، وينقل الثرى من شاطئ إلى شاطئ ، ويفر أمامه كل إنسان ، ويستسلم كل شئ لهياجه ، دون أن يقوى على أن يتصدى له . ومع ذلك ، ولو أن هذه طبيعته ، فإن الناس مازالوا يستطيعون أن يتخذوا الحيطة منه بالسدود والجسور حين يكون هادئا ، حتى إذا هاج وماج فإما أن يجرى فى قناة ، أولا يكون اندفاعه عنيفا جدا وخطرا . وهذا أيضا شأن الحظ يظهر قوته حيث لم تتخذ التدابير لمقاومته، وينجو بغضبه إلى حيث يدرى ألا سدود أو حواجز قد أقيمت لتعترض سبيله . وإذا نظرت إلى إيطاليا التى كانت مسرح هذه التغييرات ، والتى قد قدمت الدافع إليها ، فإنك تراها بلدا بدون حواجز أو جسور من أى نوع . فلو كانت تحميها تدابير صحيحة مثلى ألمانيا ، وأسبانيا ، وفرنسا ، لما تسبب هذا الفيضان فى تغيراتها الكبيرة ، ولربما لم تقع بتاتا .

ويجب أن يكفى هذا لكى نتصدى للحظ عموما . ولكن حين أقتصر على حالات خاصة فإنى أشير إلى كيف يرى المرء أميرا من الأمراء يواتيه الحظ اليوم ، وغدا يحطمه ، دون أن نشاهد أى تغيير عنده فى خلقه أو غيره . أعتقد أن هذا يرد أول ما يرد إلى الأسباب التى قد ناقشناها بإطناب منذ وقت قصير . وبعبارة أخرى أقول : السبب هو أن الأمير الذى يركن إلى الحظ تماما يهلك عندما يتغير الحظ . وأعتقد أيضا أن السعيد هو من تتفق حال إجراءاته مع حاجات العصر ؛ وبالمثل فإن التعس هو من لا تتفق حال إجراء أعماله معها . لأن المرء يرى الرجال فى تلك الأمور التى تقودهم إلى الغرض الذى يتطلع كل منهم إليه ، أى العظمة والثراء ، يجرون على طرائق متباينة . هذا يصل بالحذر ، وذاك يصل بالتسرع ؛ واحد يصل بالعنف ، والآخر يصل بالمكر ؛ إنسان يصل بالصبر ، وسواه يصل بعكس ذلك . وبهذه المناهج المختلفة تمام الاختلاف يمكن أن يصل كل منهم إلى هدفه . ويرى الإنسان أيضا رجلين حذرين ينجح أحدهما فى نيل ما يريد ، ويفشل الآخر ؛ وكذلك ينجح على حد سواء رجلان لكل منهما منهج يغاير منهج الآخر - فأحدهما حذر ، والآخر مندفع . والسر فى ذلك ليس سوى طبيعة العصر التى تتفق مع نهج إجراءاتهم أولا تتفق معها . ونتيجة ذلك ، كما قلت ، أن رجلين يعملان بطريقتين مختلفتين يصلان إلى نفس النتيجة، ورجلين آخرين يعملان بطريقة واحدة يصل أحدهما إلى هدفه ،

ولا يبلغه الآخر . وعلى هـذا الأمر تتوقف أيضا التغـيرات فى الفلاح ، لأنـه إذا حـدث أن كان الزمن والظروف مـلائمين لمن يعـمل بحذر فـإنه ينجح ، ولكن إذا تغيـر الزمن والظروف فإنه يهلك ، لأنه لم يغـير من حال إجرائه للأمور . لم يوجد حكيم للدرجة استطاع معها أن يكيف نفسه مع هذا الأمر ، إما لأنه لا يمكنه أن ينحرف عما تعده به طبيعته ، أو لأنه كان ينجح دائما وهو يسلك مسلكا واحدا ، فلا يستطيع أن يقنع نفسه بأن من الصالح له أن يترك هذا الطـريق . ولذا فإن الرجل الحذر حين يكون الزمـن مناسـبا للعـمل المباغت لا يعـرف كـيف يفعل ذلك ، وبالـتالى يهلك . لأن المرء إذا استـطاع أن يغير طبـيعتبـه مع الزمن والظروف فلن يتغير حظه أبدا .

عمل البابا يوليوس بعجلة فى كل ما قام به ، وألفى الزمن والظروف ملائمين لحـال إجـرائه الأمور ، حتى أنه كـان يحصل دائما على نتيـجة طيـبة . ولننظر إلـى الحـرب الأولى التى قـام بها ضـد بولونيا وجـان بنتيـفولى . لم ترق هذه الحرب للبنادقـة ، ولا لملك أسبانيـا ، وكانت فرنسا تجـرى معه محادثات بشـأن الحملة . ومع ذلك ، جردها شخـصيا نظرا لاستـعداداته الضارية وميـوله العجال . وكـانت نتيجة هذه الحـركة توقف أسبانيا والبنادقة وترددهم . وكـان الخوف دافع البنادقة إلى ذلك ، وكانت العلة بـالنسبة إلى أسـبانيا رغـبتهـا فى أن تستعـيد جـميع مملكة نابولى . ومن ناحية أخـرى أشرك معه ملك فـرنسا ، لأنه حين رآه يقوم

بهذه الحركة ، وكان يرغب فى صداقته لكى يكسر شوكة البنادقة ، رأى ذلك الملك أنه لا يستطيع أن يرفض مساعدته بقواته دون أن يكون فى ذلك إهانة سافرة له . وهكذا أنجز يوليوس الثانى بحركته العجلى مالم يكن فى استطاعة أى بابا سواه أن ينجح فى القيام به بأقصى حكمة بشرية . لأنه لو كان قد انتظر حتى تتم جميع الترتيبات ، ويتقرر كل شئ قبل أن يبارح روما ، لما كتب له النجاح أبدا . لأنه كان من المحتمل أن يجد ملك فرنسا آلاف الأعذار ، وأن يوحى إليه سواه بآلاف المخاوف . وإنى أقتصر على عمله هذا دون أعماله الأخرى التى كانت جميعا من هذا النوع ، ونجحت كلها نجاحا طيبا . إنه لم يجرب الفشل ، وذلك لقصر حياته . فلو أنه تلا ذلك أوقات كان من الضرورى فيها العمل بحذر ، لكانت النتيجة هلاكه ، لأنه لم يكن ليحيد أبداً عن هذه المناهج التى أعدته لها طبيعته .

والنتيجة ، إذن ، أن الحظ حين يتغير ، ويثبت البشر على مناهجهم فإنهم ينجحون طالما تتلاءم هذه الطرائق مع الظروف . ولكن عندما تتعارض مع الظروف فإنهم حينئذ لا ينجحون . وأرى بصورة مؤكدة أن الإقدام أفضل من الحذر ، لأن الحظ امرأة لابد من أن تظفر بها بالقوة إذا أردت أن تسيطر عليها . ويمكن لنا أن نرى أن الحظ يستسلم للباسل أكثر من أولئك الذين يعملون بأناة . ولذلك فالحظ كالمرأة يصادق دائما الشباب ، لأنهم أقل حذرا ، وأكثر عنفا ، ويسيطرون عليه بجرأة تفوق جرأة سواهم .

الباب السادس والعشرون
حض على تحرير إيطاليا من البرابرة

والآن وقد نظرت بعين الإعتبار إلى الأمور التى تحدثت عنها ، وتأملت فى قرارة نفسى فيما إذا كان الوقت الحاضر لا يلائم ظهور أمير جديد فى إيطاليا ، وفيما إذا لم يكن ثمة وضع للأمور يعطى فرصة لرجل حول قلب وقدير كى يقدم نظاما جديدا يخلع عليه الشرف ، ويعود بالخير على كتلة الشعب . ويبدو لى أن كثيرا من الأمور تتفق وتتلاقى ليحظى بها حاكم جديد لكى يقوم بهذا العمل ؛ ولا أعرف وقتا أنسب له من الوقت الحاضر . وإذا كان من الضرورى ، كما قلت ، أن يكون الإسرائيليون فى مصر عبيدا لكى تظهر قدرة موسى ، وأن يبطش الميديون بالفرس لكى يعطى ذلك البطش مجالا لعظمة قورش وبسالته ، وأن يتفرق شمل الأثينيين لكى يظهر علو كعب تيسيوس ، فكذلك الحال الآن - كان لابد من أن تنهار إيطاليا إلى حالتها الراهنة لتعرف قوة العبقرية الإيطالية ، وأن تكون أحط من العبريين عبودية ، وأن يكون البطش بها أشد من البطش بالفرس ، وأن يتفرق شملها أكثر من فرقة الأثينين، وأن تصبح بلا رئيس ، وبلا نظام ، مقهورة ، منتهبة ، ممزقة كل ممزق، ومغلوبة على أمرها، وأن تكون قد عانت كل صنوف الدمار .

ومع أنه قد لاحت قبل الآن بارقة أمل فى أن فردا معينا قد يبعثه الله لخلاصـها ، إلا أننا رأينا الحظ يجانبـه وهو فى ذروة مهمتـه ، حتى أن إيطاليا الآن ، وقد فـارقتها الحيـاة تماما ، تنتظر من قد يأسو جـراحها ، ويضع حـدا لاغتصـاب لمبارديا ، والجـشع والاستـلاب فى مملكة نابولى وتوسكانيا ، ويبرئ إيطاليا من تلك الجروح التى طال تقيحها . ولنشاهد كيف تضرع إيطاليا إلى الله أن يرسل إليها من يخلصها من قسوة البرابرة ومهانتهم . ولنشاهد استعدادها ورغـبتها فى الانضواء تحت اللواء لو رفعه فحسب رفعا أى إنسـان . ولا أمل لإيطاليا يمكنها أن ترجوه الآن إلا فى أن يقود بيتك الرفيع هذا التحرير ، فـهو عال لنفوذه وحظه ، ويحبوه الله والكنيـسة التى يستـمـد الآن منهـا السلطان . ولن يكون هذا الأمر جـد عسـير، لو تذكـرت أعمال من ذكـرت من الرجال وحـياتهم . ومع أن أولئك الرجال نادرون وأعاجيب ، إلا أنهم بشر على أية حال ، وكانت فرصة كل منهـم دون الفرصة الحاضرة ، لأن عـملهم لم يكن أعدل من هذا العمل ، أو أسهل منه ، ولم يكن الله فى عـونهم كما هو فى عونك الآن . هنا قـضيـة عـادلة ؛ و «الحرب عـادلة حيـنما تكون ضـرورية ، والأسلحة مقدسة عندما» «لا يعود أمل إلا فى اللجوء إليها » . هنا أعظم صدق للعزيمة ، وإذا ما صدق العزم فـقد وضح السبيل ،لو أنك فحسب اقتديت بأولئك الذين وضـعتهم أمامك أسوة . وفضـلا عن ذلك ، فقد

شوهدت فى هذا المقام معجزات فذة - لقـد انشق البحر ، وكانت الغمامة دليلا ، وتفجر الماء من الصخر ، ونـزل المن من السماء . ولقد تضافرت جميع الأمور لعظمـتك ، وواجبك أن تقوم بما بقى . إن الله لا يريد أن يفعل لنا كل شئ حتى لا يجردنا من الإرادة الحـرة ، ويحرمنا من نصيبنا من المجد .

وليس بعجيب إذا لم يكن أحـد ممن ذكرت من الإيطاليين قد أتى بما نأمل أن يفعل بيـتك الرفيع . وإذا كانت القدرة العسكـرية قد بدت دائما كما لو كان قـد قضى عليها تماما فى ثورات كبـيرة جدا فى إيطاليا ، وفى كثـير من العـمليات الحربيـة ، فإن علة ذلك أن المناهج القـديمة لم تكن صـالحـة ، ولم يقم من عـرف كيـف يكشف مناهج جـديدة . ولا شئ يشرف من يظهـر من الرجال شرفـا كبيـرا أكثر مما يـأتى به من القوانين والسنن الجديدة ، فهـذه أمور تجعله موضع إكبار وإعـجاب ؛ وفى إيطاليا مجال كبير لإدخال كل نوع لتنظيم جديد . وهنا فى الأعضاء قدرة عظيمة بينما تفـتقر إليـها الرءوس . لننظر كيـف تفوقت فئـة من الإيطاليين قوة ومهـارة وذكاء فى النزال الفردى والمعارك الـلاجماعيـة ، ولكنهم أظهروا الضعـف في الجيوش . أن الأمـر يعزى تمامـا إلى ضعف الـقواد ، لأن أولئك الذين يعلمون لا يطاعون ، وكل أمرئ يظن بنـفسه المعرفة ، ولم يظهر حتى الآن مـن سما عاليا لقـدرته وحسن طالعه معـا لدرجة استطاع

معها أن يجعل سواه يذعن له . ومن هنا حدث أن كان الفشل من نصيب الجيوش الإيطالية دائما لزمن طويل جدا ، وفى كافة الحروب التى شنت أثناء العشرين سنة الأخيرة . والشاهد الأول على ذلك تارو Taro والساندرية Alessandria ، وكابوا Capua ، وجنوا Genoa ، وفايلا Vaila ، وبولونيا Bologna ، ومسترى Mestri .

ولذلك ، فإذا أراد بيتك الرفيع أن يقتفى آثار أولئك العظماء الذين خلصوا أوطانهم ، فمن اللازم لك ، أولا وقبل كل شئ ، أن تعد نفسك بالأساس الصحيح لكل عمل ، ألا وهو قواتك الوطنية ، لأنك لن تستطيع أن يكون لك جنود أخلص منها ، ولا أفضل . وإذا كان كل واحد منها صالحا ، فإنها تكون عينها أحسن حالا وهى متحدة ، وحين ترى نفسها تحت إمرة أميرها ، هو يكرمها ، وهى تفوز بخطوته . ولذلك فمن الضرورى لك أن تعد مثل هذه القوات حتى تستطيع أن تدافع عن الوطن من الأجانب بالقدرة الإيطالية . ومع أن المشاة السويسرية والأسبانية تعتبران شديدتى البأس ، إلا أن لكل منهما نقائصها ، حتى أنه يتسنى لنا بتنظيم عسكرى ثالث التصدى لهما ، فضلا عن أن نكون على يقين من الغلبة عليهما ، لأن الأسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا لهجوم الفرسان ، والسويسريين لابد من أن يخافوا ملاقاة مشاة تلقاهم بعزم مثل عزمهم . ولقد كانت نتيجة ذلك ، كما سوف يشاهد بالتجربة ، أن الأسبانيين لا يستطيعون أن يصمدوا لإغارة

الفرسان الفرنسيين ، وأن تقهر المشاة الأسبانية السويسريين قهرا . ومع أننا لم نر بعد مثالا للتنظيم الأخير ، إلا أن موقعة رافنا كانت مثالا له ، حيث هجمت مشاة الأسبانيين على الكتائب الألمانية المنظمة على نفس نظام السويسريين لقد تمكن الأسبانيون برشاقتهم ، وبمساعدة تروسهم ، من أن يخترقوا صفوفها من بين حرابها ومن تحتها ، ومن أن يتخذوا لهم موقعاً يهجمون منه عليها هجوما سليما ، ودون أن يتسنى للألمانيين أن يدافعوا عن أنفسهم ؛ ولو لم يغر عليهم الفرسان لأمكن إفناؤهم على بكرة أبيهم . ولذلك إذا عرفنا نقائص كل من هذين النوعين من المشاة فإنه يمكننا أن نشكل نوعا ثالثا يمكنه أن يقاوم الفرسان ، ويكون فى غنى عن الخوف من المشاة . وتنفيذ ذلك يكون بانتقاء الأسلحة ، واختيار تنظيم جديد . وهذه هى الأمور التى تعطى الصيت للأمير الجديد ، وتنيله العظمة ، حين يدخل هذه الأمور لأول مرة .

وعلى ذلك يجب ألا تتيح لهذه الفرصة أن تمضى ، حتى يتسنى لإيطاليا أن تجد فى النهاية محررها . وإننى لا أستطيع أن أعبر عن الحب الذى سوف يستقبل به هذا المحرر فى كافة تلك المقاطعات التى قد ذاقت الغناء تحت نير الغزو الأجنبى ، وعن النفوس المتعطشة للثأر ، وعن الولاء المكين ، وعن العقيدة الثابتة ، وعن دموع الشكر والعرفان . أى باب يوصد فى وجه هذا المحرر ؟ وأى إنسان يرفض أن يدين له بالطاعة ؟ وأى حسد يمكن أن يعترض سبيله ؟ وأى إيطالى لا يقبل أن

يدين له بالولاء ؟ إن رائحة السيطرة الأجنبية تلسع كل أنف . فهل لبيتك الرفيع ، إذن ، أن يؤدى هذا الواجب ، وبتلك الشجاعة والآمال التى توحى بها قضية عادلة ، حتى ينهض وطن الآباء والأجداد تحت رايتها ، ويصدق فى رعايتها قول بترارك Petrarch :

إن القدرة تنازل الحماقة

ولا يطول بينهما النزال ، وتقهرها ؛

لأن القدرة الرومانية القديمة التى تحرك قلوب أبناء إيطاليا

مازالت تدب فيها الحياة ولم تمت بعد .

الفهرس



هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب: وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها: فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوجية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك



١٥٠ قرشا



مكتبة الأسرة 2000
مهرجان القراءة للجميع